التنغيم وأثره في الدلالة بين القدامى والمحدثين

بقلم

د/ محمد مبارك الشاذلي محمد البندارى

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

جامعة الأزهر

التنغيم وأثره فى الدلالة بين القدامى والمحدثين

بقلم الدكتور

محمد مبارك الشاذلى البندارى

مدرس أصول اللغة العربية فى جامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

إن دراسة ظاهرة التنغيم فى العربية نوع من المجازفة ــ كما ذكر د/تمام حسان ــ ، وذلك لأن العربية الفصحى لم تعرف هذه الدراسة فى قديمها، ولم يسجل القدماء شيئا عن هاتين الظاهرتين(١) ــ يقصد النبر والتنغيم ــ، بيد أنها مجازفة مطلوبة؛ لأن هذه الظواهر الأدائية المهمة تكاد تكون مهملة على مستوى التحليل اللغوى قديما وحديثا على خطرها البين، وأثرها غير المنكور فى توجيه الوظيفة للوحدات والتراكيب والمعنى الذى تؤديه"(٢).

وترجع صعوبة الدراسة الأدائية لظاهرة التنغيم فى العربية إلى عدم وجود مستوى صوابى "مقياس معيارى" للتنغيم فى الفصحى يمكن الاحتكام إليه بل "أغلب الظن أن ما ننسبه للعربية الفصحى فى هذا المقام إنما يقع تحت نفوذ لهجاتنا العامية"(٣).

ومصطلح التنغيم هو المقابل لكلمة MELODY وهى عنصر من عناصر الأداء اللغوى INTONATION ومعناه: "ارتفاع

---

(١) ينظر: د/ تمام حسان: مناهج البحث فى اللغة ١٦٣، ١٦٤، ط الأنجلو المصرية ١٩٩٠م.

(٢) ينظر: د/محمد يوسف حبلص: إثر الوقف على الدلالة التركيبية/ ١٦ بحث منشور فى مجلة دار العلوم .

(٣) د/ تمام حسان: مناهج البحث فى اللغة ١٦٤ .

الصوت وانخفاضه أثناء الكلام"[١] ودراسته فى العصر الحديث مستمدة من الدراسات اللغوية الغربية[٢] ، ولعل أول من أدخل هذا المصطلح إلى الدراسات اللغوية العربية المعاصرة للدكتور/ إبراهيم أنيس (ت١٩٧٦) وسماه "موسيقى الكلام"[٣] ويبدو أنه أخذ المصطلح من اللسانيات الحديثة التى ترى التنغيم أحد سمات الأداء الذى لابد من وجوده فى أى لغة.

بيد أنه خلط بين ظاهرتى التنغيم والنبر، وإن بدا أنه حاول مجتهدا الربط بين موسيقى الكلام (إنشاد الشعر) والتنغيم .

ولعل البداية الحقيقية لدراسة "التنغيم" جاءت على يد الدكتور تمام حسان الذى طبق المنهج الوصفى فى تحديد ماهية التنغيم واستعمالاته ونماذجه، وذلك عند دراسته للهجة عدن "باليمن" ـــ أطروحته للعالمية باللغة الإنكليزية ـ[٤]، بل وأوجد طريقة كتابية لتمثيل التنغيم (الصعود والهبوط ـ الاستواء والثبات) ووضع علامات لنغمة المقطع "المجموعة المعنوية ، والمجموعة الكلامية"[٥].

---

(١) مناهج البحث فى اللغة ١٦٤ .

(٢) ولعل جامعة الأزهر كان لها السبق فى دراسة بعض الظواهر الأدائية فى العربية الفصحى من خلال الأجهزة المعملية الحديثة فى ظاهرتى "النبر ـ والتزمين" ينظر رسالة د/عبدالعزيز علام : من التزمين فى نطق العربية الفصحى بمصر المعاصرة، ورسالة د/عبدالله ربيع محمود: عن النبر فى نطق العربية الفصحى بالعالم العربى المعاصر، وهاتان الرسالتان مودعتان فى مكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٤م.

(٣) ينظر كتابه:الأصوات اللغوية، ط الأنجلو ١٩٨٦، وموسيقى الشعر ط الأنجلو

(٤) ينظر The Ponetics and phonology of An Aden (مخطوطة ولم تطبع بعد).

(٥) ينظر المرجع السابق، واللغة العربية معناها ومبناها ٢٢٦ عالم الكتب ط٣ ، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

وتناول د/كمال بشر ــ أيضا ــ هذه الظاهرة فى كتابه "علم اللغة العام ــ الأصوات العربية"(١).

وأما عن جهود القدامى فى دراسة هذه الظواهر الأدائية "خاصة التنغيم" فهى وإن بدت قليلة، إلا أنها تنم عن معرفتهم بهذه الظاهرة، وإن لم يأتوا بدراسة نظرية شاملة تحدد كنهه وطبيعته ودرجته ــ أى التنغيم ــ.

فقد لاحظ علماء العربية القدامى الفرق فى الأداء بسبب التنغيم ، وأدركوا قيمته الدلالية فى تغيير المعنى، وما يترتب على ذلك فى بعض الأحيان من تغيير فى الإعراب، وما قصة أبىالأسود الدؤلى وابنته وما دار بينهما فى موقفهما المعروف حين تعجبت الابنة من السماء، وإنكار والدها عليها لذلك، وعدد سؤالا: "ما أجمل السماء؟" عنا ببعيد.

ويعد العلامة ابن جنى (ت٣٩٢هـ) ابن بجدتها ــ كما يقولون ــ فقد حاول تسجيل ملاحظاته الأدائية فى كتابه "الخصائص"، وإن بدت ناقصة فذكر فى باب "حذف الصفة لدلالة الحال عليها" أن قولنا "كان والله رجلا فتزيد فى قوة النطق بـ"الله" وتتمكن فى تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أى رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانا! وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه، فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك، وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه

---

(١) ط. مكتبة الشباب (د.ت) ، ولعل دراسته الموسعة لهذه الظاهرة جاءت فى كتابيه: علم الأصوات ط. مكتبة غريب، وفن الكلام (الفصل الثالث: التنوين الصوتى للكلام الطلاء ــ النبر والتنغيم) ط:مكتبة غريب ٢٠٠٣م.

وكان إنسانا، وتزوى وجهك وتقطبه، فيغنى ذلك عن قولك: إنسانا لئيما أو لحزا أو بخيلا، أو نحو ذلك"[١].

وسجل ــ أيضا ــ ملاحظته الأدائية الدقيقة فى باب "نقص الأوضاع إذا ضامها طارئ عليها" يقول: "من ذلك لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال خبرا، وذلك قولك: مررت برجل أى رجل، فأنت الآن مخبر بتناهى الرجل فى الفضل، ولست مستفهما"[٢]، فهذه الملاحظات وغيرها مما سجله القدامى تحت مصطلحات "المطل والتمطيط والتطريح والتطويح والاختلاس والترنم" وكذا مناقشتهم بعض الأبواب النحوية المعتمدة فى المقام الأول على الأداء كالإغراء، والتحذير، والندبة، وكذا جهود علماء التجويد فى ضبط الأداء القرآنى لكتاب الله ــ عزوجل ــ[٣] ما هو إلا إشارات واضحة لهذه الظاهرة الأدائية "التنغيم".

ولعل الدافع إلى كتابة هذا البحث فى قضية من قضايا الأداء وعنصر من أهم عناصره "التنغيم" أشياء كثيرة منها: نفى معظم الدارسين العرب المحدثين أن تكون فكرتا النبر والتنغيم فى الجملة معروفتين لدى علماء العربية والقدامى.

ولقد جاء هذا البحث ليبين جهود علماء العربية القدامى فى وصف هذه الظاهرة الأدائية "التنغيم" وربط ذلك بعلم اللغة الحديث،

---

(١) ط: الخصائص ٢/ ٢٥٢ تح: محمد على النجار . ط المكتبة العلمية ــ بيروت (د.ت).

(٢) المرجع السابق ٣/ ١٩٢ وتمثل بقول الله ــ تعالى ــ : (أنت قلت للناس) [سورة المائدة/ ٥٩]، وقوله سبحانه: (آلله أذن لكم) [سورة يونس/ ٥٩] وبيت جرير: الستم خير من ركب المطب.

(٣) ينظر النموذج لجهود القدامى فى دراسة الأداء كتاب أ.د/عبدالله ربيع محمود : الملامح الأدائية عند الجاحظ فى البيان والتبيين . ط.أولى ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.

وبيان أثر التنغيم فى الدلالة، واقتضت خطة الدراسة أن تجئ فى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة .

وقد جاء الفصل الأول عنوان "مصطلح التنغيم بين القدامى والمحدثين" تناولنا فيه تعريف التنغيم، وتحديد المصطلح ، والأساس الصوتى للتنغيم (الفسيولوجى والفيزيقى)، وإشارات القدامى لظاهرة التنغيم (سيبويه – ابن جنى – ابن يعيش – ابن الجزرى) وكذا مناقشة آراء المحدثين لهذا الوصف، وجهودهم فى دراسة هذه الظاهرة الأدائية .

وجاء الفصل الثانى بعنوان "التنغيم فى العربية الفصحى واستعماله" وتناولنا فيه أنواع النغمة، ونماذج للتنغيم فى اللغة العربية الفصحى، مع ترسيمة توضح نوع النغمة فى هذه النماذج ، والتنغيم بين اللغتين المنطوقة والمكتوبة، وإبراز دور علامات الترقيم فى تحديد المراد من الجملة .

وجاء الفصل الأخير بعنوان "التنغيم وأثره فى الدلالة" وقد بينا فيه أثر التنغيم فى المعنى، والسياق ودوره فى تحديد المعنى المراد من النغمة، وفقدان التنغيم وأثره فى سوء الفهم والمراد، والتنغيم والأداء .

وأما الخاتمة فتناولت فيها أهم النتائج التى توصل إليها البحث .

ولقد حاولنا فى هذا البحث أن نتوصل إلى اكتشاف القواعد، التى يلتزمها أهل اللغة فى أدائهم، وإلى رسم النظام الذى يشكله التنغيم عند الأداء، ولعل التقدم العلمى والتطور التكنولوجى الذى يزخر به هذا العصر هو الذى ساعدنا فى الوصول إلى الهدف المنشود .

وتوصل البحث ــ أيضا ــ إلى أن العربية ليس فيهـا وظيفـة معجمية للتنغيم لأنها لا تستخدمه كما تستخدمه اللغة الصينية وبعض لغات غرب أفريقيا .

هذا وقد جاء هذا البحث ليساعد فى وصـف هـذه الظـاهرة الأدائية "التنغيم" ومحاولة تقعيدها، وإبراز أهميتها فى تحديد المعنى، وليرد على الذين يقدحون فى جهود علماء العربية القدامى ويرمونهم التقصير، فى وصف هذه الظواهر الأدائية، وإننا نقول: إن سـيبويه وابن جنى وغيرهما من علمـاء اللغـة ليسـوا أقـل مـن "بـوب" و"تشومسكى" ... لأنهم "علوج" حرموا نعمة البيان العربى، وهل ترك ربنا من جمال لغوى لم يفرغه فى وجدان العـرب، أولئـك "قـومى" فجئنى بالكيع بمثلهم .

والله أسأل أن يغفر لى خطئى وتقصيرى
إنه نعم المولى ونعم النصير

التنغيم واللغات

قسم العلماء اللغات إلي نوعين :

١- **لغات نغمية** (Tone Languages) وهي لغات يتحدد معني الكلمة فيها عن طريق النغمة ، حيث أن الاختلاف في درجة الصوت علي الكلمة المنطوقة هو المسئوول عن تحديد معناها.

ويظهر هذا في اللغة الصينية ن فاللفظ ينطق بنغمات مختلفة وبها يتحدد المعني . يقول الدكتور أحمد مختار عمر (إن اختلاف درجة الصوت في هذه اللغات يساعد علي تمييز كلمة من أخرى)[١]، فمثلا كلمة " فان " – في اللغة الصينية تؤدي ستة معاني دلالية ليس ينهما علاقة ، وهي : " نوم – يحر – شجاع – واجب – يقسم – مسحوق "[٢].

٢- **لغات تنغيمية** (Intonation Languages) وتمثلها اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية إذ إن الجملة تتعدد دلالتها باختلاف التنغيمات التي تنط . فطرق الأداء التي بها يتم نطق الجملة له أثر كبير في المعاني المراد إبلاغها ، يقول د / أحمد مختار عمر (ونوع يسمي التنغيم وهنا تقوم درجات الصوت المختلفة بدورها المميز علي مستوي الجملة أو العبارة أو مجموعة الكلمات .

---

(١) دراسة الصوت اللغوي ط . عالم الكتب

(٢) د / وفاء البيه / أطلس أصوات اللغة العربية / ١٥٨ ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ .

وهذا ما جعل اللغويين الإنجليز أتباع مدرسة فيرث يهتمون اهتماما كبيرا بإرساء قواعد التنغيم .

يقول روبنز (لا تجد لغة من اللغات إلا وتستخدم درجات مختلفة من الصوت إنها المسؤولة عن التنغيم) .

وظائف التنغيم (في مستويات الدرس اللغوي)

للتنغيم وظائف متعددة ، نجمل أهمها في مستويات التحليل اللغوي كالتالي : -

المستوى الصوتي :

ويري د/ تمام حسان أن للتنغيم وظيفة أصواتية هي :

" النسق الأصواتي الذي يستنبط التنغيم منه " [١]، وهذا يعني أن التنغيم لن يتشكل في هذا المستوي ولكن يتم تشكله في مستوى التشكيل الصوتي ، رغم أن بعض العلماء ينسب التنغيم إلي علم الأصوات ، وهذا خلط منهم بين الأصوات والصوتيات .

بيد أنه يجب التفريق بين المستويين الأصواتي ، والفونولوجي ، فالأول " يدرس ويحلل الأصوات المفردة أو المجردة في حين أن النظام الفونولوجي ينظر إلي الأصوات ويحللها من خلال وجودها في بنية لغوية " [٢] .

وبالفعل لا وجود للتنغيم إلا من خلال بنية لغوية يتشكل فيها ، وأما ذكر التنغيم في المستوي الصوتي فإنه لا يتعدى وصفه فسيولوجيا وفيزيقيا ... إلخ .

---

(١) مناهج البحث في اللغة / ١٦٤ .

(٢) ظ . د / حلمي خليل : مقدمة لدراسة اللغة / ١٩٣ ، منشأة المعارف بالإسكندرية

أما علاقة التنغيم بنظام الصرف فهو وجـود إيجـابي ، وحيث يعين علي تحديد الوظيفة النحوية العامة للجمل ، ويتم له هذا من خلال اعتباره قرينة نحوية تتضافر مع غيرهـا مـن القـرائن لإيضاح المعني العام .

ويوضح د / تمام حسان الوظيفة النحوية للتنغيم بقولـه : " ربما كان له وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي في جملـة لـم تستعمل فيها أداة الاستفهام "

ويرى البحث أن وظيفة التنغيم في النحو وظيفة تركيبية لا تحليلية ، وربما يكون تركيز القدماء علي الوظائف التحليليـة دون التركيبية سببا من أسباب عدم تناولهم التنغيم بالدراسة .

وإذا كان التنغيم يمثل قاعدة في نظام النحوية ، فإن مشكلات السياق تفرض أن يكون سياقيا لإحدى هذه المشـكلات ، فهـو إذاً يمثل نظاما ثابتا ، كما يمثل متغيرا من تغيرات السياق .

أما الوظيفة الدلالية للتنغيم فإنه يتم معرفـة المعـاني المختلفة عن طريق التنغيم ورغم أن هـاتين وظيفتـان مختلفتـان (الأدائية والدلالية) إلا أنه لا يمكن أن نفصل الوظيفة الأدائية عـن الدلالية . فهما متلازمتان ومتكاملتان . لذا فإن إيجاد قواعد عامـة توضح التنغيم ، وأهمية ما يسمي بدرجة الصوت وتتابعها إنما هـو علي سبيل المقاربة . فالتنغيم – في رأينا – مجموعة معقـدة مـن الأداء الصوتي بما يحمل من نبرات ، وفواصل صـوتية ، وتتـابع مطرد للسكنات والحركات ، التي بها يحدث الكلام وتتميز دلالاته .

وهذا ما دعا ديفيد كريستال إلي القول (ليس التنغيم نظاما متفردا من المناسيب يأتي في نهاية الجملة ولكن خصائص معقدة من مختلف الأنظمة البروسودية) تشمل النغمة ، درجة الصوت ، المدى ، علو الصوت ، التزمين . هذه الأمور كلها مجتمعة تأتي متناغمة ذات إيقاع . (ولقد ظل الدارسون مترددين ف حصر التنغيم فقط في حركة درجة الصوت بيد أنه عندما يسأل ما أثر التنغيم في توجيه المعني حينئذ معايير أخري غير درجة الصوت يشار إليها علي أنها جزء مهم وأساس في التأثير علي المعني) .

فالتنغيم أوسع من أن يحصر في ما يسمي بهوط النغمة ، أ, صعودها ،ولكن كل ما يحيط بالنطق من طرق الأداء . هذه الطرق تشمل الوقف ، والسكت ، علو الصوت ، نبر المقاطع ، وطول الصوت وغير ذلك ، ثم أن التنغيم يقتصر علي التراكيب المسموعة دون التراكيب القروءة . فالأداء وما يحمل من نبرات ، وتنغيمات ، وفواصل له أثر كبير في نفوس السامعين ، ومتابعتهم ، وحسن إصغائهم ، وفهم المراد .

فمن فائدة التنغيم أنه يزيل اللبس عن معني الجملة وبه يدرك الفرق بين المعاني . وهذا يتأتي بإتقان مجموعة طرق الأداء في النطق تتمثل في النبر ، والوقف ن والسكت والإيقاع ، ووصل بعض الكلام ، واختلاس بعض الأصوات والاستغناء عن بعضها ومد بعضها لتكون واضحة . هذه الأمور هي علامات بارزة وهي ما يكون التنغيم . فالمتكلم قد يهدف بحديثه وتتابع نغمات كلامه العتاب ، أو الاستحثات ، أو لفت النظر ، أو الامتعاض إلي غير ذلك .

ولعل هذه الإشارة تقودنا إلي تسيم د / تمام حسـان ، وهـو أكثر اللغويين المحدثين احتفالا بالتنغيم ، لنماذج التنغيم في اللغـة ، حيث انتهي إلي الأشكال الآتية :

١- النغمة الهابطة الواسعة .

٢- النغمة الهابطة المتوسطة .

٣- النغمة الهابطة الضيقة .

٤- النغمة الصاعدة الواسعة .

٥- النغمة الصاعدة المتوسطة .

٦- النغمة الصاعدة الضيقة .

التنغيم عند القدماء

يمكننا أن ننظر إلي ظاهرة التنغيم عند القدماء من جهة كونها معياراً عرفياً في كلامهم ، وكذا كونها ظاهرة موضوعية في دراستهم وحدود هذه الدراسة .

ولا شك أن المحدثين من علماء اللغة العربية أكدوا وجود العنصر الموسيقي في كلام العرب قديماً وحديثاً ، يقول د / أحمد كشك :

" يتفق كثير من الدارسين المحدثين علي أن التغنيم باعتباره مظهراً صوتياً قاسم مشترك بين لغات العالم ؛ ومن ثم فهو ظاهرة أدائية في اللغة العربية ". (١)

وصف القدامى لظاهرة التنغيم في العربية :

لقد وصف القدامى هذه الظاهرة عن طريق ووصفوها عن طريق بعض المصطلحات المشابهة لمصطلح التنغيم مثل : التمطيط والتطريح والمطل والاختلاس والترنم ، أو عن طريق مناقشتهم بعض الأبواب النحوية المتعمدة في المقام الأول على عنصر الأداء مثل باب الإغراء والتحذير والندبة ، أو عن طريق أبيات منظومة ــ كما في علم التجويد ــ .

آراء المحدثين في إدراك القدامى لهذه الظاهرة (بين الرفض والتأييد) :ـ

ينفي كثير من علماء العرب المحدثين أن تكون فكرتا النبر والتنغيم في الجملة معروفتين لدي علماء العربية القدامى ، وقد ظن

---

(١) د/ أحمد كشك : من وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي ولغوي ودلالي / ٥٥ ط. دار غريب ٢٠٠٧م .

بعضهم عكس ذلك ، وسوف يعرض البحث ــ باختصار غير مخل ــ لهذه الآراء والرد عليها علي النحو التالي :

١ـ **آراء القائلين بعدم وجود دراسة لله لظاهرة التنغيم عند القدامى :**

لعل أول من حمل لواء الرفض في العصر الحديث د/ تمام حسان (عميد كلية دار العلوم بالقاهرة سابقاً) ، يقول عند حديثه عن النبر ممهداً للتنغيم : " لا يفوتني أن أشير إلي أن دراسة النبر ودراسة التنغيم في العربية الفصحى يتطلب شيئاً من المجازفة ؛ ذلك لأن العربية الفصحى لم تعرف هذه الدراسة في قديمها ، ولم يسجل لنا القدماء شيئاً عن هاتين الناحيتين ، وأغلب الظن أن ما ننسبه للعربية الفصحى في هذا المقام إنما يقع تحت نفوذ لهجاتنا العامية لأن كل متكلم بالعربية الفصحى في أيامنا هذه يفرض علينا من عاداته النطقية العامية الشيء الكثير وأظن القارئ يعلم أن القرآن الكريم نفسه يختلف نطقاً ونبراً وتنغيماً . (١)

ونري رأيه سافراً في قوله : " التنغيم في اللغة العربية الفصحى غير مسجل ، ولا مدروس ، ومن ثم تخضع دراستنا إياه في الوقت الحاضر لضرورة الاعتماد علي العادات النطقية في اللهجات العامية " . (٢)

وتابع د/ تمام حسان في رأيه د/ محمد صالح الضالع ــ أستاذ علم الصوتيات في جامعة الإسكندرية ــ ويذكر أنه : " علي الرغم من إحاطة العرب القدماء بالتحليل النحوي الدقيق والدرس النحوي العميق العربية ونصوصها لم نعثر ــ حسب علمى ــ علي ما يدل علي تناولهم لظاهرتى النبر والتنغيم ، ومع أنهم قدموا لنا في علم

---

(١) مناهج البحث في اللغة / ١٦٣ – ١٦٤ .

(٢) ظ . اللغة العربية معناها ومبناها / ٢٢٨ – ٢٢٩ .

التجويد والقراءات ما تناولوه عن الوقف والاستغراق الزمني ، وهما من المظاهر التطريزية Prosodic أو الفوقطعية Suprasegmental التي تشمل النبر والتنغيم إلي جانب هاتين في اللغة العربية وإحساس القدماء بها . (١)

ويري أن القدماء أهملوا هاتين الظاهرتين لأنه لم يكن لها أي تأثير لغوي أو فونولوجي . (٢)

فهو يقرر أن القدامى خاصة علماء التجويد والقراءات لم يشيروا إلي التنغيم والنبر ، ولم يرد ذكرا واضحا صريحاً في مصنفاتهم . (٣)

ويذكر في خاتمة بحثه أنه : بذلك لا يري أن التنغيم ظاهرة أصلية في نظام اللغة العربية أي ليس له نظام فونولوجي محدد كما هو الحال في بعض اللغات وبخاصة اللغة الإنجليزية . (٤)

ويعلق د/ الضالع علي نص العلامة ابن جني في باب حذف الصفة لدلالة الحال عليها والذي ذكر فيه أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطوع والتطريح والتنفجن والتغطية ما يقوم فيه مقام قوله طويل أو نحو ذلك في قولهم سير عليه ليل .

بأن هذا النص لا يدل علي تنبيه إلي النبر أو التنغيم ، ولكنه يدل علي تنبه إلي الوسائل الصوتية والحركية غير اللغوية التي تضاف إلي الوحدات اللغوية ، وتحيط بها معبرة عن دلالات مقصودة

---

(١) المرجع السابق / ٢٢٦ ، ومناهج البحث في اللغة / ١٦٤ .
(٢) د/ محمد صالح الضالع : قضايا أساسية في ظاهرة التنغيم في اللغة العربية / ١٠ .
(٣) المرجع السابق / ١٠ .
(٤) قضايا أساسية في ظاهرة التنغيم في اللغة العربية / ٢٩ .

حسب الموقف والمقام والحال ، فمن الوسائل الصوتية الرمزية التي يستعين بها المتحكم في تلوين كلامه وتصوير ألفاظه : **التفخيم** كما يحدث عندما تنطق كلمة " كبير" بلفظ مفخم يتسع فيه التجويف الفموى لتصوير العظم والمبالغة في الفخامة ، والترقيق كما يحدث عندما تنطق كلمة "صغير" بلفظ مرقق يضيق فيه التجويف الفموي ، لتصوير الضآلة وقلة الحجم ، وإطالة الحركات القصيرة ومطل الحركات الطويلة ومدها تصويراً للطول أو البعد ، وقد تصاحب هذه الوسائل الصوتية حركات جسمية أو إشارية . (١)

ويري البحث أن د/ الضالع يثبت ومطلها مؤديان إلي التنغيم، وهما ذاتها تكوين صوتي يصاحب المنظومة لتغير فيما يراد التعبير عنه .

وهل التنغيم إلا وسيلة صوتية يؤدي بها المنظومة لكي يعبر به عن دلالات حسب الموقف أو المقام ؟! ويقرر البحث أن د/ الضالع يكون بهذا أخرج التنغيم من كونه وسيلة لأداء المنظومة ، ولا تعدوا إشارته إلي التفخيم والترقيق الحروف ، فالترقيق والتفخيم مختصان بالحروف لا الكلمات ولا الجمل ، يقول د/ تمام حسان : " التفخيم والترقيق يختلفان في الفصحى عنها في العاميات ، فهما في الفصحى يرتبطان بالحروف ، أما في العاميات فهما ظاهرة موقعية ترتبط لا بالحروف وإنما بالموقف في السياق " . (٢)

ويقرر د/ رمضان عبد التواب أن القدماء لم يدرسوا التنغيم ولم يعرفوا ماهيته ، فيقول : " لم يعالج أحد من القدماء شيئاً من

---

(١) قضايا أساسية في ظاهرة التنغيم في اللغة العربية / ٢٥ .
(٢) مناهج البحث في اللغة / ١٥٣ .

التنغيم ولم يعرفوا كنهه ، غير أننا لا نعدم عند بعضهم الإشارة إلي بعض آثاره في الكلام للدلالة علي المعاني المختلفة وكان ابن جنى أحد الذين التفتوا إلي ذلك . (١)

وإلي هذا الرأي ذهب د/ محمد يوسف حبلص ــ أستاذ في دار العلوم بالقاهرة – بقوله : " تكاد تكون هذه الظواهر الهامة مهملة علي مستوي التحليل النحوي قديماً وحديثاً علي خطرها المبين ، وأثرها غير المذكور علي توجيه الوظيفة اللغوية للوحدات والتراكيب والمعني الذي تؤديه . (٢)

هذه هي بعض الآراء التي رفضت أن يكون للقدماء دراسات في التنغيم ، ونستطيع أن نذكر ، بعض الآراء التي تقرر وجود دراسات في التنغيم ، أو إرهاصات لهذه الدراسة ، ومن هؤلاء العلماء د/ كمال بشير ــ أستاذ في دارالعلوم بالقاهرة ــ فيقرر أولاً : عدم وجود أية دراسة نظرية علمية بالحدود المذكورة في التراث النحوي العربي ، (٣) بيد أنه يري أن تقلب صفحات التراث النحوي مرات متتابعات قد وضع أيدينا علي نصوص متناثرة هنا وهناك في أعمالهم تنبئ – نوع إنباء ــ عن إدراك القدامى لفكرة التنغيم وموسيقي الكلام ، وإن لم يحاولوا دراسة الموضوع دراسة نظرية تفي بحقه من الدرس والاهتمام . (٤)

---

(١) المدخل إلي علم اللغة ومناهج البحث اللغوى / ١١٠ .
(٢) د/ محمد يوسف حبلص : اثر الوقوف علي الدلالة التركيبية / ١٦ .
(٣) علم الأصوات / ٥٥٠ ، ط. دار غريب وفن الكلام / ٢٧٣ ط . دار غريب .
(٤) المرجع السابق / ٥٥٠ .

واستثني من ذلك خطوة شيخ العربية الأول الخليل بن أحمد الفراهيدى ت ١٧٠ أو ١٧٥ هـ ، ويصرح برأيه في كتابه الموسوم بـ " **فن الكلام** " : "الرأي عندنا أن علماء العربية ـ شأنهم في ذلك شأن سائر الناس ـ خبروا التنغيم ومارسوه في أدائهم الفعلى للكلام ، إنهم فعلوا ذلك لا بالتلقين أو التعليم المرسوم بالقواعد والقوانين ، وإنما كانوا يأتون به علي وجهه الصحيح بالعادة والسليقة والدربة ، كما كانوا يفعلون مع الأحداث اللغوية الأخرى ، من أصوات وصيغ حرفية وتراكيب نحوية إلخ ، فالتنغيم عنصر مكمل للمنظومة لا ينفك عنه وأمارة صحته ووفائه بالمعني المقصود وفقاً لنوعيات التراكيب ونوعيات مقامات الكلام " . (١)

ويذكر د/ بشر أن المحدثين من العلماء " لم يعمدوا إلي تفاصيل ما أجمل الخليل ولا إلي ما ينبغي فعله في هذا المجال ، (٢) ويقول : " من هنا انطلقت صيحات زاعقات من غير العارفين تنكر وجود أي أثر علمي تراثي يعرض القضية . موسيقي الكلام ونغماته في حين أن أفكار الخليل بتواضعها تمثل بذرة طيبة قابلة للاستزراع والنماء والتفريغ يمنها ما من شأنه أن يضع ذلك كله ، ولكن أحداً لم يفعل ، ولم يلتفت إلي ما صنع الخليل في الوقت نفسه . (٣)

وذهب إلي مثل هذا د/ كريم زكي حسام الدين – أستاذ في كليةالآداب ببنها – وذكر بعض إشارات القدامى والتي تنفيذ من

---

(١) فن الكلام / ٢٧٢ .
(٢) علم الأصوات / ٥٤٩ .
(٣) المرجع السابق / ٥٥٠ .

مفهوم التنغيم ، وناقش هذه الإشارات في كتابه " أصول تراثيه في علم اللغة . [١]

ويقرر الدكتور / أحمد كشك أن قضية دراسة ظاهرة التنغيم عبارة عن اختلاف منهج التناول ، وعلي الباحث أن يبحث أولا عن أصول التنغيم في التراث الصوتي ، ثم يحاول معرفة مدى توظيفهم له في الدرس النحوي مع الوضع في الاعتبار أن العرب جاء تراثهم كلاً لا يتجزأ ، يقول : " قدامى العرب وإن لم يربطوا ظاهرة التنغيم بتفسير قضاياهم اللغوية ، وهم وإن تاه عنهم سجيل قواعد لها ، فإن ذلك لم يمنع من وجود خطوات ذكية لماحة تعطي إحساساً عميقاً بأن رفض هذه الظاهرة تماماً أمر غير وارد ، وإن لم يكن لها .

حاكم من الواعد لشقة بابين الدرس الصوتي في نظرهم وبين النحو ، حيث كانت دراستهم الصوتية قمة في استخدام المنهج الوصفي ، والاعتماد علي ما هو واقع بعيداً عن الفرص والتأويل ، وكان درسهم النحوي يعتمد في كثير علي المنهج المعياري الذي أسس في غالبة علي الفرص والتأويل ، ولعل ذلك كان سيئاً أبعد التنغيم عن خدمة النحو . [٢]

---

(١) د / ١٩٠ ط. الانجلو

(٢) من وظائف الصوت اللغوي / ٥٧ .

الأصوات

دراسة القدامى للتنغيم : دراسة علمية :

يعد الخليل ين أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ هـ أو ١٧٥ هـ) أول من حاول دراسة ظاهرة التنغيم فما فعله الخليل - كما ذكر د/بشر - يعد خطوة رائدة ألقي بها إلينا شيخ العربية الأول ، وذلك في صورة نحو الشعر وأوزانه ، ولا ننس أن الخليل له كتاب في النغم ضاع مع الزمن .

وقد كان العرب يلونون كلامهم بتلوينات موسيقية مختلفة ، وهو لا يدري كمها أو أنماطها أو حتى وظائفها ، وإنما يأتي به كذلك جديا علي عاداته اللغوية المكتسبة من الجو اللغوي العام في البيئة المعنية ، وقد يخطئ بعضهم في التلوينات المناسبة فيرشده أهل الخبرة والذوق اللغوي ، وما حدث مع أبو الأسود الدؤلي وابنته - في القصة المشهورة - لم يكن ناشئاً عن تدريب علي التنغيم ووظائفه ، وإنما عن سليقة سليمة جارية علي سنن الناطقة الأسوياء .

ونجد بعض هذه الإرشارات عند تلميذ الخليل النجيب إمام النحاة سيبويه (ت ١٨٠هـ) في كتابه ، يقول في باب الندبة : " اعلم أن الألف ؛ لأن الندبة كأنهم يتمرنون بها . [١] ، يقول د/ بشر : كأنه يعني أنهم يلونونها بموسيقي محينة ونمط من التنغيم خاص . [٢]

وصرح العلامة ابن جني ت ٣٩٢ هـ في كتابه " **سر صناعة الإعراب** " بأن : " هذا العلم هو علم الأصوات والتنغيم " . [٣]

---

(١) الكتاب ٢ /. ٢٢٠ ، تح . عبد السلام هارون ، ط. الخانجي .
(٢) د/ بشر : علم الأصوات / ٥٥٠ .
(٣) سر صناعة الإعراب : ٢١/١ تح . هنداوي ، ط . دار القلم .

والتعبير بمصطلح " التنغيم فيه دلالة واضحة علي إدراك أن الكلام المنظوم يصدر منغماً ، وأن هذا التنغيم جزء لا يتجزأ من خواص الكلام .

وجاء في" **الخصائص** " ما يؤكد وعي ابن جني بموسيقي الكلام ودور نغماتها ولحونها في الفهم والإفهام وتنميط تراكيب الكلام إلي أجناسها التركيبية والدلالة ، بل تعدي ذلك إلي ما هو أعمق وأشمل .

وعبر العلامة ابن جني بمصطلح التمطيط [١] في **باب حذف الصفة لدلاله الحال عليها** ؛ حيث يقول فيه معلقاً علي قوله: كان والده رجلاً فتزيد في قوة النطق بـ الله وتتمكن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليه ، أي إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك ، وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت : سألناه وكان إنسانا ، وتزوي وجهك وتقطبه فيغني ذلك عن قولك : إنساناً لئيماً أو لحزاً أو منجلاً أو نحو ذلك . [٢]

ومما لاحظه غبن جني في هذا الخصوص ما جاء عنده في باب في نقض الأوضاع إذا ضامها طارئ عليها من ذلك لفظ الاستفهام ، إذا ضامه معني التعجب استمال خبراً ، وذلك قولك : مررت برجل أني رجل ، فأنت الآن تخبر بتناهي الرجل في الفضل ولست مستهما . [٣]

---

(١) ينظر بحث د/ محمد مبارك الشاذلي : مطل أصوات اللين وتقصيرها في القراءات القرآنية ، منشور في مؤتمر دار العلوم بالمنيا ٢٠٠٩ م .

(٢) الخصائص ٢/٢٥٢ .

(٣) الخصائص ٣/٢٦٩ .

وقال : ومن ذلك لفظ الواجب ، إذا لحقته همزة التقرير لما نفياً ، وإذا لحقه لفظ النفي عاد يرجياً وذلك كقول الله سبحانه : أأنت قلت للناس (سورة المائدة /١٦) أي ما قلت لهم ، وقوله : " آلله أذن لكم " (سورة يونس / ٥٩) أي لم يأذن لكم ، وإنما دخولها علي النفي فكقوله عز وجل " ألست بربكم " (سورة الأعراف / ١٧٢) أي أنا كذلك ، وقول جرير يمدح عبد الملك بن مروان : ألستم خير من ركب المطايا ... أي أنتم كذلك ، وإنما كان الإنكار كذلك لأن منكر الشيء إنما نمرضه أن يجعله إلي عكسه وضده ، فلذلك استحال مع الإيجاب نفياً والنفي إيجابياً .(١)

وفي كل هذا لاحظ ابن جني أن تضام الاستفهام مع طريقة الأداء بالتعجب قد أدي إلي تغيير الأوضاع والدلالات إلي النقيض ، فتحول الاستفهام إلي استفهام إنكاري ، وهذا بدوره بمثابة ملاحظة منه لأثر الأداء والتنويع الصوتي في تغيير الدلالة .

ويعد علماء اللغة في العصر الحديث قصة اليزيدي التي رواها السيوطي في " **الأشباه والنظائر** " نوع من التنغيم ، يقول السيوطي : حدث المرزباني عن إبراهيم بن إسماعيل الكاتب قال سأل اليزيدي الكسائي بحضرة الرشيدي فقال : انظر في هذا الشعر عيب ؟ وأنشده :

ما رأينا خربا نفر ... عنه البيض صفر

لا يكون العير مهراً ... لا يكون المهر مهر

---

(١) الخصائص ٣/٢٦٩ .

فقال الكسائي : قد أقوي الشاعر ، فقال له اليزيري : انظر فيه ، فقال أقوي : لابد أن ينصب المهر الثاني علي أنه خبر كان ، فضرب اليزيري بقلنسوته الأرض ، وقال : أنا أبو محمد : الشعر الصواب إنما ابتدأ فقال : المهر مهر . (١)

يقول د/ أحمد كشك معلقاً علي هذه القصة : لقد رأي الكسائي إقواء وارداً في رفع كلمة مهر ، والصواب نصبها باعتبارها خبر كان في رأيه ولم يقطن لما رآه اليزيري الذي استخدم شيئاً جديداً في تفسير البيت وهو السكته أو قل الوقفة أو قل التنغيم الذي جعل جملة لا يكون التي ضغط عليها حين النطق وأخذت مطاً صوتياً لم يعهد لها بعيداً عن السياق لا صلة بينها وبين ما بعدها ، فهي توكيد لما قبلها من حديث ، فالقائل ينشد : لا يكون الغير مهراً ويبدأ هذا التوكيد بكلام مستأنف جديد فيه مبتدأ وخبرة المهر مهر . (٢)

ويقول في نص السيوطي هذا جملة استفهامية لن يفهم مراد الاستفهام منها إلا بالتنغيم ، ففي قوله : انظر في هذا الشعر عيب ؟

أصبحت النغمة محددة بالاستفهام وإلا لتوهم القارئ الأخبار في هذا المقام وهو أمر وارد لوجود النغمية . (٣)

من خلال هذه النصوص السابقة نستطيع أن نقرر أنها إشارات إلي التنغيم لدي القدماء ، ونري أنهم وظفوا التنغيم في مناقشات قضايا نحوية كثيرة .

---

(١) السيوطى : الأشياه والنظائر ٣/٢٥٦ .
(٢) د / أحمد كشك : من وظائف الصوت اللغوي / ٦١ .
(٣) المرجع السابق .

الوصف الفسيولوجي والفيزيقي للتنغيم

١. الوصف الفسيولوجي :

التنغيم ظاهرة تشكيل صوتي ، وظواهر التشكيل الصوتي إنما هي تنمية تشكل الأصوات في إنسان محددة في ظل عوامل محددة وينشأ عن هذا التشكيل دلالات لغوية عرفية ، ومن هذا المنطلق فإن للتنغيم وظيفة أصواتية ، والوظيفة الأصواتية للتنغيم في النسق الأصواتي الذي يستنبط التنغيم منه . (١)

فإذا كان التنغيم ارتفاع وانخفاض في الصوت أثناء الكلام ، فإن هذا مبني علي وجود درجة صوتيه ذات علو وانخفاض ، هذه الدرجة تحدث نتيجة لاهتزاز الوترين الصوتيين بتأثير الهواء المسلط عليها من الرئتين مما يحدث ذبذبة في هذين الوترين ، هذه الذبذبة ذات سعة وضيق ينتج عنها العلو والانخفاض وذات تردد نتج عنه الدرجة الصوتية .

ويتوقف علو الصوت علي المدى الذي يصل إليه مصدر الذبذبة في الراوح بين نقطتي غاية انبعاده من نقطة الصفر ، ومعني ذلك أنه إذا كان الوتر الصوتي الإنساني في حالة صمت سواء كان مقفلاً أو مفتوحاً فهو في النقطة الذبذبية صفر ، أي أنه غير منتقل . فإذا بدأ في الذبذبة تحرك إلي أعلى وأسفل بمدي يتساوي فيه ما بين نقطة الصفر وغاية الهبوط فإذا أتسع ذلك المدى كان الصوت عاليا وإذا حناق كان الصوت منخفضاً ، وهذا المدى بدورة يتوقف اتساعه وضيقة علي كمية الهواء الخارج من الرئتين المار بين الأوتار الصوتية ، فإذا زادت كمية الهواء أتسع المدى وبالعكس . (٢)

وأما درجة الصوت فهي تقاس ــ كما نعلم ــ بسرعة تذبذب الوترين .

---

(١) مناهج البحث في اللغة / ٦٤ .
(٢) مناهج البحث في اللغة / ٦٠ .

وقد بني علماء اللغة في الحديث تعريفهم للتنغيم باعتبارهم علي المظهر الفسيولوجي ووضفوا التنغيم بأنه ارتفاع الصوت وانخفاضه .

ويري د/ إبراهيم أنيس أن النبر بنوعيه (نبر الكلمة والجملة ويعتبر التنغيم) ليس إلا شدة في الصوت أو ارتفاعاً فيه ، وتلك الشدة أو الارتفاع يتوقف علي نسبة ضغط الهواء المندفع من الرئتين . (١)

ويشير د/ محمود فهمي حجازي إلي أن " التنغيم مرتبط بالارتفاع والانخفاض في نطق الكلام نتيجة لدرجة توتر الوترين الصوتيين مما يؤدي إلي اختلاف الوقع السمعي . (٢) تغير وتردد بين الهبوط والصعود في درجة الصوت.

ويفسر د/ وفاء البيه في موسوعته الصوتية " أطلس أصوات اللغة العربية " التنغيم بأنه ذبذبة ، فيري أن هذا التغير في تردد الدرجة يرجع إلي التغير في نسبة ذبذبة الشفتين أيعني بها الوترين الصوتيين بالحنجرة هذه الذبذبة التي تحدث نغمة موسيقية . (٣)

بيد أن بعض علماء اللغة المحدثين تجاوز المظهر الفسيولوجي للتنغيم إلي الجانب الذهني ، حيث يري أن التنغيم لا يعتمد علي الصفات الطبيعية لجسم الإنسان فقط وإنما هو ظاهرة لغوية مبرمجة يتحكم فيها الدماغ الذي يعطي الأوامر لبعض عضلات الحنجرة التي تتحكم في طول وشدة الوترين الصوتيين لإحداث نغمة عينة لها معني . (٤)

ويرجع أحد الباحثين في التنغيم إلي فروق فسيولوجية ، فيري أنه يختلف التنغيم من متكلم إلي آخر بقدر الفوارق الخلقية في

---

(١) الأصوات اللغوية / ١٧٥ .
(٢) مدخل إلي علم اللغة / ٨٢ .
(٣) أطلس أصوات اللغة العربية / ١٥٧ .
(٤) د/ يوسف الهليس : علم الصوتيات الموجي والسمعي عند علماء المسلمين القدماء / ١١٠ .

الوترين الصوتيين اللذين يحدثان النغمة الموسيقية عن طريق ذبذباتها . [١] ، والفوارق الخلقية يقتصر تأثيرها علي درجة الصوت فقط ، أنما العلو فلا يختلف ، لأن درجة الصوت تتوقف علي سمك الوتر وطوله وقوة توتره ، وهذه كلها فروق فسيولوجية . [٢]

ونستطيع أن نقرر أن المظهر الفسيولوجي للتنغيم يتمثل في الوترين الصوتيين باعتبارهما عضواً فسيولوجياً له وظيفته الفسيولوجية التي هي الأصل بالنسبة له ، أما الأهتزاز أو الذبذبة التي يحدثها هذا العضو الفسيولوجي فهي وظيفة ثانوية بجانب هذا الأصل .

٢ـ الأساس الفيزيقي للتنغيم :

بعد حدوث الذبذبات الصوتية التي ينتجها الوتران الصوتيان ، تنتقل هذه الذبذبات بكل ما تحمله من صفات أو تغيرات الوسط الناقل للصوت إلي الطرف الآخر وهو السامع ، وهذا الوسط الناقل يخضع للوصف الفيزيقي ولهذا الوصف الفيزيقي مصطلحاته وقيمته الخاصة التي تشمل في :

أ- الذبذبة الصوتية .　　ب- اتساع الذبذبة .

ج- تردد الذبذبة .　　د- الموجة الصوتية . [٣]

---

(١) د/ محمد علي رزق الخفاجي : علم الفصاحة العربية مقدمة في النظرية والتطبيق /٢٠٠ – ٢٠١ .

(٢) ويمكن ملاحظة هذا في صوت الرجل وصوت المرأة وصوت الطفل .

(٣) ينظر في تعريف هذه القيم الصوتية ، د/ عبد الرحمن أبوب : أصوات اللغة / ٩٧ ، ١٠١ ــ ١٠٢ ، ١٢٩ ، ١٥٥ ، وأحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي / ٢٥ ، وبرتيل ما لمبرج : علم الأصوات / ١٤ ، تعريب د/ عبد الصبور شاهين ، وتمام حسان : مناهج البحث في اللغة / ٦١ .

فهذه القيم الصوتية الفيزيائية تعتبر من وسائل التحليل والوصف للعلو والانخفاض في الصوت ، ولا يخرج حد التنغيم عنها ، ولعل تناولنا للجانب الفسيولوجي والفيزيقي بإيجاز يكون أداة وصف النغمة والتنغيم بصورة جليلة .

نغمة المقطع :

للمقطع – كما نعلم – ثلاث درجات من الأسماع : درجة منخفضة ثم درجة مرتفعة ثم درجة متوسطة .

ودرجة قمة كل مقطع تسمى " نغمة " أو " نغمة المقطع " ، والنغمة لا تخرج عن كونها مستوية ، أو هابطة ، أو صاعدة ، أو هابطة صاعدة ، أو صاعدة هابطة ، وبيان هذه النغمات وشرحها في الآتي :

- **النغمة المستوية** : ومعناها " وجود عدد من المقاطع تكون درجاتها متحدة "[١] ، وهذا يعني استواء مجموعة المقاطع في درجة القمة ، وقد تكون النغمة المستوية منخفضة أو متوسطة أو عالية تبعا لعدد المقاطع المستوية قلة وتوسطا وكثرة.
- **النغمة الهابطة** : وهي " تعني وجود درجة عالية في مقطع أو أكثر تليها درجة أكثر انخفاضاً منها " ، وهذا يعني انحداراً من قمة مقطع إلي قمة آخر منخفضة الدرجة عن القمة السابقة أو منخفضة عن عدد من القمم التي تسبقها ، " وقد تكون النغمة الهابطة مركبة من نغمة متوسطة الدرجة تليها نغمة منخفضة ، كما قد تكون مركبة من نغمة عالية الدرجة تليها نغمة متوسطة " .

---

(١) ينظر The Ponetics and phonology of An Aden (مخطوطة ولم تطبع بعد) .

- **النغمة الصاعدة** : وهي " تعني وجود درجة منخفضة في مقطع أو أكثر تليها درجة أثر علوا منها " ، وهذا يشير إلي الارتفاع من قمة مقطع إلي قمة مقطع آخر أعلى من قمة سابقه ، أو أعلي من مجموعة قمم سابقه، و" قد تكون النغمة الصاعدة مركبة من نغمة منخفضة تليها نغمة متوسطة ، وقد تكون مركبة من نغمة متوسطة تليها نغمة عالية " .
- **النغمة الهابطة الصاعدة** : وهي تشير إلي " وجود درجة عالية في مقطع أو أكثر تليها درجة أقل منها ثم درجة عالية " ، أي انحصار درجة بين درجتين هما أعلي منها .
- **النغمة الصاعدة الهابطة** : ويعني بها " وجود درجة منخفضة في مقطع أو أكثر تليها نغمة أعلي منها ثم نغمة أكثر انخفاضا من الثانية " ، أي وقوع درجة صوتية بين درجتين أخفض منها والجدير بالذكر أن لكل نغمة من هذه النغمات تمثيلا كتابيا يأتي ذكره لاحقا في الكلام في ترقيم التنغيم .

وقبل إنها الحديث في نغمة المقطع يجب التنبه إلي أن درجة إسماع قمة كل مقطع ، والتي تتخذ معيارا للمقارنة بين مقطع وآخر ؛ تكاد تكون نسبية غير محدودة ، ولكن يحددها الأداء ، ولقد ذكر الدكتور / أحمد مختار عمر أنه " لما كانت نظرية المقطع قد قامت في أساسها علي فكرة تفاوت الأصوات في درجات إسماعها فقد اهتم الأصواتيون ببيان درجة إسماع كل صوت[١]، أو بترتيب الأصوات في مجموعات

---

(١) أصول اللغة / ١٥٣ .

علي أساس هذه الفكرة قسم د/ عبد الرحمن أيوب الأصوات بحسب قوة المجموعات إلي مجموعات ست تتمثل في أصوات عديمة السمع ، وأصوات قوة إسماعها ، وهكذا .

بحسب درجات إسماعها " [١]، وهذا يعني أن المقارنة بين مقطع وآخر تكون بالرجوع إلي ترتيب الأصوات في تلك المجموعات ، إلا أن القضية أكبر من هذا الحد من السهولة والحفظ ؛ حيث إن مثل هذه الترتيبات والتقسيمات تقريبية إضافة إلي أن " لكل صوت من الأصوات قوة إسماع خاصة يمكن أن تعرف علي وجه الدقة كما أن قوة إسماع الصوت تختلف اختلافا جوهريا تبعا لدرجته واتساعه ، وهي أمور يمكن أن تتفاوت تبعا لتفاوت طريقة الأداء .

النموذج التنغيمي:

ذلك الذي يقوم من الأمثلة مقام الميزان الصرفي من أمثلته ، ولكل لغة نماذج تنغيمية FORM [٢]، كما أن " كل لغة لها – بالنسبة لكل مجموعة من الكلمات أو الجمل – نماذج من التنغيم متميزة تماما إلي الحد الذي يمكن الشخص من أن يتعرف علي اللغة المتكلمة أمامه حتى إذا لم يميز فعلا واحدا من كلماتها " .

و" الجمل العربية تقع في صيغ وموازين تنغيمية هي هياكل من الأنساق النغمية ذات أشكال محددة ، فالهيكل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية وجملة العرض غير الهيكل التنغيمي لجملة الإثبات وهن يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة . فلكل جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة فاؤها وعينها ولامها وزوائدها وملحقاتها نغمات معينة بعضها مرتفع وبعضها منخفض وبعضها يتفق مع النبر وبعضها لا يتفق معه . وبعضها صاعد من مستوى أسفل وبعضها هابط من مستوي أعلي ؛ فالصيغة التنغيمية منحنى

---

(١) دراسة الصوت اللغوي / ٢٨٧ .
(٢) التنغيم ودوره في التحليل اللغوي / ٧٨ .

نغمي خاص بالجملة يعين علي الكشف عن معناها النحوي كما أعانت الصيغة الصرفية علي بيان المعني الصرفي للمثال "

الميزان التنغيمي :

يقول د / تمام حسان : " يمكن تقسم التنغيم العربي من وجهتي نظر ، إحداهما شكل النغمة المنبورة الأخيرة في المجموعة الكلامية ، والثانية هي المدى بين أعلي نغمة وأخفضها سعة وضيقا ؛ فأما من الوجهة الأولي فينقسم إلي قسمين :

اللحن الأول الذي ينتهي بنغمة هابطة .

اللحن الثاني الذي ينتهي بنغمة صاعدة أو ثابتة أعلي مما قبلها .

وأما من الوجهة الثانية فينقسم إلي ثلاثة أقسام ؛ هي متمثلة في الآتي :

المدى الإيجابي .

المدى النسبي .

المدى السلبي .

فمجموع التقسيمات إذا يقع في ستة نماذج تنغيمية مختلفة ، هي كل في اللغة العربية من نماذج التنغيم [١]، وهذه الموازين الستة هي :

١- الإيجابي الهابط . ٢- الإيجابي الصاعد .

٣- النسبي الهابط . ٤- النسبي الصاعد .

٥- السلبي الهابط . ٦- السلبي الصاعد .

ويتضح من تقسيم د/ تمام حسان أن النموذج التنغيمي " مزيج من اللحن والمدى " ، وبهذا فهما أساسان من أسس تقسيم

---

(١) مناهج البحث في اللغة / ١٦٤،١٦٥ .

الميزان التنغيمي يضاف إليهما أساس ثالث ، وهو يتمثل في المجموعة الكلامية والمجموعة المعنوية وهو أساس مهم لأنه يمثل حدود مادة الوصف ،وبهذا يمكن تحديد أسس الميزان التنغيمي في :

الأساس الأول : المجموعة الكلامية والمجموعة المعنوية .

الأساس الثاني : اللحن .

الأساس الثالث : المدى .

وتفصيل هذه الأسس يتمثل في الآتي .

الأساس الأول : المجموعة الكلامية والمجموعة المعنوية .

تحديد النموذج التنغيمي يكون من خلال مجموعتين هما : المجموعة الكلامية SPOKFN GROUP ، والمجموعة المعنوية SET GROUP ؛ وهاتان المجموعتان هما حدود مادة وصف النموذج التنغيمي ، ولقد فرق د/ تمام حسان بين المجموعتين ؛ فيقول في المجموعة الكلامية " إننا نسمي كل مجموعة من الكلمات أيا كان عددها مادامت تقع بين سكتتين وتستغرق مرة واحدة من مرات التنفس (مجموعة كلامية) سواء كانت جملة مفيدة أو جزء من جملة أو كانت كلمة واحدة . والمجموعة الكلامية نسق من الأصوات أو سلسلة منها " [1]، وبهذا فهو يرى أن المجموعة الكلامية " سلسلة من الأصوات اللغوية المتصلة في نفس واحد واقعة بين سكتتين " .

وقد سماها البعض مجموعة نفسية كما سمي المجموعة المعنوية بالجملة الفونولوجية .

---

(١) مناهج البحث في اللغة / ٥٧

ويرى البحث أن : تحديد النموذج التنغيمي ينحصر في المجموعة الكلامية ، أما المجموعة المعنوية فقد تشتمل علي نموذج أو نموذجين أو أكثر بحسب تمام الفائدة أو المعني .

الأساس الثاني : اللحن التنغيمي .

اللحن هو " مجموع النغمات التي في المجموعة الكلامية ؛ أي الترتيب الأفقي للنغمات التي يشتمل النموذج أو الميزان عليها مع نظرة خاصة إلي النغمة المنبورة الأخيرة من هذا الترتيب " .

وينقسم نظام تنغيم الفصحى إلي لحنين : الأول ، وينتهي بنغمة هابطة علي آخر مقطع وقع عليه النبر ، والثاني وهو ينتهي بنغمة صاعدة علي المقطع المذكور [١] ويجب أن يوضع في الاعتبار أن تسمية اللحنين بالأول والثاني ؛ إنما هو من المجاز ولا يدل علي ترتيب أو علي أية حقيقة ، وقد احتاط د/ تمام حسان من وقوع القارئ في هذا الظن قال " وأما الاصطلاحان : الأول والثاني فلا يصفان إلا نغمة آخر مقطع وقع عليه النبر في الجملة من الكلام ؛ فإذا كان هذا المقطع منحدرا من أعلي إلي أسفل فذلك هو الشكل الأول للحن العربي وإن كان صاعدا من أسفل إلي أعلي فهو الشكل الثاني " .

أما عن استعمال كل لحن من اللحنين فيحدده د / تمام حسان في قوله : مع أن الشكل الأول هو المستعمل في الإثبات والنفي والشرط والدعاء وجميع الجمل حتى إنه ليشارك الثاني في مجاله وهو الاستفهام بالظروف ونحوها دون الأداتين (هل والهمزة) ؛ نري الشكل الثاني قاصرا علي الاستفهام بالأداتين فقط وهو النوع

---

(١)اللغة العربية معناها ومبناها / ٢٩٩ .

الوحيد من أنواع الاستفهام الذي ينتهي بنغمة صاعدة ، كما يرى أن النغمة الأخيرة لا تصعد مع الظروف إلا عند إرادة التعبير بجملة الاستفهام عن معان إضافية كالدهشة أو التعالي أو نحوهما .

وفي ظل الكلام في " اللحن " لا يفوت الدراسة أن تشير إلي (النغمة المسطحة) ، وهي تعني وقوف المتكلم قبل تمام المعني علي نغمة ليست بالصاعدة ولا بالهابطة ، وإنما هي (مسطحة) ، وقد مثل د / تمام حسان علي هذا النوع من اللحون بقول الحق – تعالي –" فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر " (سورة القيامة / ٧– ١٠) ويري أن الوقف على (البصر ، القمر الأولي ، والقمر الثانية) وقف علي معني لم يتم فتظل نغمة الكلام مسطحة دون صعود أو هبوط ، وأما الوقف عند (المفر) فالنغمة فيه هابطة لأنه وقف عند تمام معني الاستفهام بغير الأداة ، أي الاستفهام بالظرف .

الأساس الثالث : المدى التنغيمي .

قد يشتمل الميزان التنغيمي الواحد علي عدد من النغمات ذات الأصوات المتفاوتة الدرجة بين العلو والانخفاض والتوسط ، والمسافة بين أعلي درجة وأخفضها في الميزان التنغيمي الواحد يطلق عليها مصطلح (المجال) أو (المدى) ، وهذه المسافة قد تتسع وقد تكون بين المرحلتين ، وبهذا فإن المجال يطلق علي " المدى بين أعلي نغمة وأخفضها في الصوت سعة وضيقا" ، وهذا المجال أو المدى نسبي في تحديده ، ويعتمد في إدراكه علي الأذن ،

وهذا ما قرره د/ كمال بشر في قوله : "للنغمات مدى من حيث الارتفاع والانخفاض تحسه الأذن المدربة "[١].

ويشار إلي المديات الثلاثة بنوعين من الاصطلاحات ؛ أحدهما يتصل بالسعة والضيق ويتمثل في اصطلاحات ثلاثة هي " واسع ، متوسط ، وضيق " أما الآخر فيتصل بالإيجابية والسلبية ، ويتمثل في اصطلاحات ثلاثة هي " إيجابي ، نسبي ، سلبي " ، وكل اصطلاح في أحد النوعين يقابل آخر في النوع الثاني ، فالواسع هو الإيجابي ، والمتوسط هو النسبي ، والضيق هو السلبي .

ولا يجب أن يفهم القارئ الاصطلاحات (إيجابي ، ونسبي ، وسلبي) بمعناها في المعجم ؛ فالاصطلاحات بطاقات لمدلولاتها العملية التي لا تتطابق كثيرا مع المعني المعجمي العام[٢]، بل يجب أن ينظر إليها كعناوين لتقسيمات شكلية لا أكثر ، وإذا كانت السعة والتوسط والضيق تتصل باصطلاحات علو الصوت وانخفاضه ؛ فإن الفرق بين الثلاثة مديات (الإيجابي والنسبي والسلبي) فرق في علو الصوت وانخفاضه فالإيجابي أعلاها والسلبي أخفضها وبينهما النسبي .

أما عن استعمالات المديات الثلاثة ؛ فإن لكل مدى من المديات استعمالات يستعمل فيها ، فمثلا يستعمل المدى الإيجابي في الكلام الذي تصحبه عاطفة مثيرة ، ومن أمثلة استعماله الخطابة التدريس لأعداد كبيرة من الطلاب والصياح الغاضب ونحو ذلك[٣].

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها / ٥٢٣ .
(٢) مناهج البحث في اللغة / ١٦٦ .
(٣) اللغة العربية معناها ومبناها / ٢٢٩ .

ويستعمل المدى النسبي في الكلام غير العاطفي ؛ حيث إنه يستعمل للمحادثات العادية ، وأما المدي السلبي فيستعمل في الكلام الذي تصحبه عاطفة تهبط بالنشاط الجسمي العام كالحزن مثلا ؛ فهو " المستعمل في العبارات اليائسة الحزينة وفي الكلام بين شخصين يحاولان ألا يسمعهما ثالث علي بعد قليل منهما " .

وأما كتابة المديات فهي كالتالي :

أما كتابة المدى فيمكن الإشارة فيها إلي أن التنغيم يكتب " كما تكتب الموسيقى علي خطوط أفقية ، ولكن عدد الخطوط هنا ليس خمسة كما في الموسيقى ، وإنما يختلف باختلاف عدد المديات ؛ فيجعل لكل مدي مسافة بين خطين . والمديات هنا ثلاثة ، فيلزم أن نستعمل في كتابتها خطوطا أربعة تحصر بينها مسافات ثلاثا ، سفلاها كتابة المدى السلبي ، وهي وما فوقها لكتابة المدي النسبي ، والثلاث جميعا لكتابة المدى الإيجابي الذي هو أوسع هذه المديات الثلاثة "[١]، ومن الممكن أن يصطلح علي الشكل – هنا – بمصطلح " السلم التنغيمي " قياسا علي مصطلح السلم الموسيقي ؛ حيث إن الفكرة التي أقيم علي أساسها شكل هذا الميزان التنغيمي مستقاة من فكرة السلم الموسيقي وربما يتضح هذا من كلام د / تمام حسان في قوله " يكتب التنغيم كما تكتب الموسيقى " ومن الملاحظ أن عدد المديات في الميزان التنغيمي هو المسؤل عن عدد الخطوط ، وهذه الخطوط الأربعة ابتكرت خصيصا لهذا العمل ، ولقد ذكر د/ كمال بشر أن عدد الخطوط ثلاثة فقط ، ويتضح هذا في قوله : " الرسوم البيانية لموسيقى الكلام يتبع فيها عادة ضوابط معينة هي رسم

---

(١) مناهج البحث في اللغة / ١٦٦ .

خطوط ثلاثية متوازنة مع تساوي المدى بينها "[١] ، ولكن المنطق أن تكون هذه الخطوط أربعة لا ثلاثة ؛ حتى تحصر بينها ثلاث مسافات تمثل كل مسافة فيها مدى من المديات الثلاثة وإذا قيل : إنه ربما يكون د / بشر ق. أهمل المدي النسبي ؛ فإن د / بشر أشار بنفسه إلي هذا المدى في قوله عن المقطع المنبور والذي مثله بنقطة ؛ " وقد تكون النقطة في المدي ، لا إلي الاستواء في الدرجة وذكر هذا صراحة في قوله (في المدى) ثم ذكر أن هذا المدى مرتفع أو منخفض أو مستو ، وما يمكن قوله في هذا الخصوص أن الاعتماد علي ثلاثة خطوط فقط سوف يؤدي إلي عدم وجود مسافة لمدى ثالث مما قد يحدث لبسا وارتباكا في تحديده ، وماذا ينتقص في حق الدارس لو جعل الأمور بعيدة عن اللبس فوضع خطا رابعا لإيجاد مسافة لمدى ثالث ؟ !

والشرح الكتابي للمجموعتين الكلامية والمعنوية يسمي " ترقيم " ؛ لأن ترقيم التنغيم " كترقيم الكتابة تحمل العلامة فيه من الكتابة محل الشهيق لاسترجاع النفس من الكلام ، وكلما جاءت سكتة وجب وجود علامة ترقيمية . وفي التنغيم علامتان ترقيميتان ؛إحداهما خط رأسي واحد ليدل علي وقفة مع عدم تمام الكلام ، وثابيتهما خطان رأسيان ليدلا علي تمامه "[٢] ، والمجموعة الكلامية هي الدالة علي عدم التمام .

---

(١)علم الأصوات / ٥٣٥ .
(٢) مناهج البحث في اللغة / ١٦٩ .

بينما المجموعة المعنوية تدل علي تمام الكلام ؛ ولهذا فإن " تنغيم المجموعة الكلامية يكون متبوعا بالعلامة الترقيمية /بينما المجموعة المعنوية تكون متبوعة بالعلامة // .

أما كتابة اللحن التنغيمي فهي تتمثل في كيفية كتابة النغمات ؛ وكتابة هذه النغمات تتمثل في الآتي :

١- النغمة الهابطة ( ) .

٢- النغمة الصاعدة (،) .

٣- النغمة الثابتة المنبورة (ـــ) .

٤- النغمة الثابتة غير المنبورة (.) .

ويضاف إلي هذه النغمات شكل النغمتين (الصاعدة ، الهابطة) و(الهابطة ، الصاعدة) ؛ حيث تكون الأولي علي الشكل ( ) بينما يكون شكل الثانية ( )[1]، ويمكن التمثيل لعناصر الميزان التنغيمي من خلال مثال أورده د/ تمام حسان في كتابه " مناهج البحث في اللغة " وهو يتمثل في الآتي :

(نغمة ثابتة منبورة) (نغمة صاعدة) (علامة تمام المجموعة المعنوية)

(نغمة ثابتة غير منبورة)

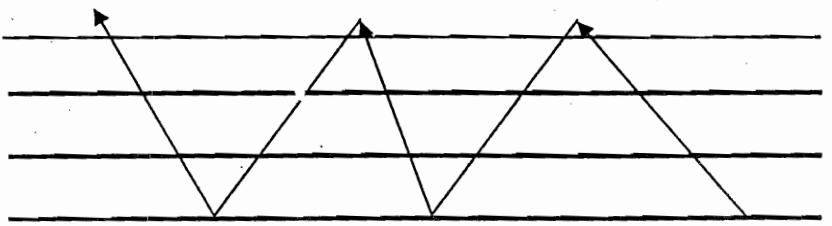

(١)ورد هذان الشكلان التابيان لهاتين النغمتين أكثر من مرة في دراسة د/ تمام حسان للهجة عدن . في الجزء الخاص بالتنغيم في هذه اللهجة ، ويمكن الرجوع إليه في الصفحات (٢١٨ ٢٤٤) .

ومن الملاحظ أن هذا النموذج لا يشتمل إلا علي بعض العناصر ، ولا تظهر فيه عناصر أخرى مثل النغمة الهابطة وعلامة المجموعة الكلامية ، والنغمة الصاعدة الهابطة ، والهابطة الصاعدة .

إدراك التنغيم لدى علماء التجويد إنَّ من أقدم النصوص التي وجدتها تندرج في سياق تجويد القرآن الذي يندرج ضمن ما نسميه تنغيم الجملة، ذاك النّص الموجود في كتاب "الزينة" لأبي حاتم الرازي (٣٢٢هـ) حيث يحلل اللفظة (آمين) إذ يقول: "قال قومٌ من أهل اللّغة هو مقصور. وإنّما أدخلوا فيه المدّة بدلاً من ياء النداء كأنّهم أرادوا (يامين)... فأمّا الذين قالوا مطوّلة فكأنه معنى النداء يا أمين على مخرج من يقول: يا فلان، يا رجل، ثم يحذفون الياء: أفلان، أزيد. وقد قالوا في الدّعاء: أربّ، يريدون يا ربّ. وحكى بعضهم عن فصحاء العرب: أخبيث، يريدون يا خبيث. وقال آخرون: إنّما مُدّت الألف ليطول بها الصوت كما قالوا: (أوه) مقصورة الألف ثم قالوا: (آوه) يريدون تطويل الصوت بالشكاية".

يرى أبو حاتم، إذن، أنّ تطويلَ الصوت –أي مدّته– يدلُّ على معنى النداء وعلى معنى الشكاية، فربط مدَّ الصوت بالمعنى. وهذا أمر لا يمكن إدراكه إلاّ بالكلام المنطوق ويقصّر الكلام المكتوب عن نقله وهذا ينقلنا إلى الحديث عن أهمية المشافهة في نقل التنغيم، فقد كان للمسلمين في التلقي الشفهي مناهج دقيقة، إذ كانوا يرون أنَ النقل من الأفواه هو النقل السليم الذي ينفي كلّ لَبْسٍ يعتريه، فابن الجزري في تعريفه للمقرئ يقول إنه "العالم بالقراءات رواها مشافهة، فلو حفظ" التيسير" مثلاً ليس أن يقرأ بما فيه إنْ لم يشافهه

مَنْ شُوفه به، مسلسلاً؛ لأنّ في القراءات أشياء لا تُحكَم إلا بالسَماع والمشافهة" .

وليس بمستغربٍ أن يحظى القرآن بكلّ هذه الحظوة والدّقة في النقل الشفوي، فالمشافهة هي المنهج الصارم في إحكام التلقي الشفوي للقرآن، وواضح من قول ابن الجزري الآنف الذكر أنّ من أحكام القرآن ما لا يمكن إحكامه أبداً إلا بالتلقي بالشفهي، فعلامات التفخيم والترقيق، والمد، والقصر، والحذف.. المثبتة كلّها في المصحف المكتوب لا تكفي لتعليمه. أما إعطاء الأصوات حقوقها وترتيبها، وردّ كلٍّ منها إلى مخرجه وأصله، والنطق به على كمال هيئته من غير إسرافٍ ولا تعسّف ولا إفراط، ولا تكلّف.. فلا يمكن أن نتحقق إلا بوساطة تحويل المصحف المكتوب إلى المصحف بالمشافهة، بل قد يؤدي عدم السماع بالمتعلم خاصة إلى التفريط، فيولّد الحروف من الحركات، أو يطنن النونات بالمبالغة، أو يطيل الممدود.. الخ مما يدخل في إطار العيوب والإخلال بالمعنى.

لقد أدرك علماؤنا وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن التي لا تخرج عن إطار العادات النطقيّة السليمة التي تساهم في تعزيز المعنى وإفهامه دون مبالغة، ولا تخرج، بالتالي، عن كونها تلوينات صوتيّة تدخل ضمن التنغيم السليم للنّص القرآني؛ فمن المعلوم أنّ للقرآن أغراضاً منها: الإعلام، والتنبيه، والوعد، والنهي، ووصف الجنّة والنار، والرد على الملحدين والكافرين... وليس طبيعيّاً ولا سديداً أن تقرأ موضوعات هذه الأغراض كلها بتنغيم واحدٍ. وقد تحدّث الإمام الزركشي (٧٩٤هـ) في كتابه "البرهان" عن وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن، ويذكر أنها تأتي على نحو من

أربعين وجهاً، وإدراكه لتنوّع الأساليب في القرآن هو ما دفعه غير مرّةٍ في كتابه المذكور إلى القول: "فمن أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل فليقرأه على منازله، فإنْ كان يقرأ تهديداً لفظ به لفظ المتهدِّد، وإنْ كان يقرأ لفظ تعظيمٍ لفظ به على التعظيم" .

ويرى في موضعٍ آخر أنّ القارئ المجيد هو الذي "تكون تلاوته على معاني الكلام وشهادة وصف المتكلّم؛ فالوعد بالتشويق والوعيد بالتخويف والإنذار بالتشديد، فهذا القارئ أحسن الناسِ صوتاً بالقرآن، وفي مثل هذا قال تعالى:(الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقَّ تلاوته أولئك يؤمنون به([البقرة .([١٨١][١٢١

فإذا كان التنغيم الباكي مقبولاً مثلاً في آيات الاستغفار والتوبة فلا بد له من أن يختلف عن تنغيم الآيات التي تحضُّ على القتال؛ أي يجب أن يوائم التنغيم المعنى ويظهره، ليجعل المقروء مستقرّاً في ذهن السامع وقلبه، فاللين غير الشدة، والأمر والنهي غير الدعاء والالتماس، والخبر غير الاستفهام، والوعد غير الوعيد.

وهذا ما رآه الإمام الزركشي وأكّده بالآية القرآنية التي أوردها.

ومن أقدم النصوص التي تناولت التنغيم في الدّراسات التي أُفردت لتجويد القرآن الكريم، ما دوّنه أبو العلاء العطار (٥٩٦هـ) في كتابه "التمهيد في التجويد" حيث يقول: "وأما اللحن الخفي فهو الذي لا يقف على حقيقته إلاّ نحارير القرّاء ومشاهير العلماء، وهو على ضربين:

أحدهما لا تعرف كيفيته ولا تدرك حقيقته إلا بالمشافهة وبالأخذ من أفواه أولي الضبط والدراية وذلك نحو مقادير المدّات، وحدود الممالات والملطفات والمشبعات والمختلسات، والفرق بين

النفي والإثبات، والخبر والاستفهام، والإظهار والإدغام، والحذف والإتمام، والروم والإشمام، إلى ما سوى ذلك من الأسرار التي لا تتقيّد بالخط، واللطائف التي لا تؤخذ إلاّ من أهل الإتقان والضبط" .

فقد جعل العطار مصطلح اللحن الخفي ممّا يُعرف بالمشافهة فقط. كما جعل اللحن الخفي مميّزاً بين المعاني كالنفي والإثبات والخبر والاستفهام... ثم قرن اللحن بالمنطوق وجعله مما لا يتقيّد بالكتابة.

وإمعان النظر في هذه النواحي الثلاث يجعلنا ندخل هذا النّص في سياق الفهم الدقيق للتشكيل التنغيمي.

وكان السمرقندي (محمد بن محمود بن محمد) (٧٨٠هـ) تالي العطّار أكثر دقّةً وتفصيلاً في هذه المسألة، ونجد في كتابه "روح المريد في شرح العقد الفريد في علم التجويد" كلاماً ينمُّ عن فهمٍ علميٍّ للتنغيم، وذلك عندما يقول: "قال السمرقندي في قصيدته (العقد الفريد):

-إذا ما) لنفيٍ أو لِجَحْدٍ فصوتُها ارْ..... فَعَنْ وللاستفهام مَكّن وعدِّلا .

-وفي غيرها اخفض صوتها والذي بما ..... شبيهٌ بمعناه فقسْهُ لتفضُلا .

-كهمزة الاستفهام مَعْ مَنْ وأنْ وإنْ ..... وأفعلَ تفضيلٍ وكيف وهل ولا .

قال في الشرح: مثال ذلك: (ما قلتُ)، ويرفع الصوت بـ (ما) يعلم أنّها نافية، وإذا خفض الصوت يعلم أنّها خبريّة، وإذا جعلها بين

بين يُعلم أنّها استفهاميّة. وهذه العادة جارية في جميع الكلام وفي جميع الألسن" .

وهكذا نلاحظ أن السمرقندي جعل خاصّة رفع الصوت وخفضه أي (التنغيم) عادة جارية في جميع الألسن، وهذا ينمُّ عن إدراك دقيق لهذه الخاصة.

وجعل أيضاً رفع الصوت وخفضه عاملاً في تغيير المعنى، إذ إن فهم ارتفاع الصوت وانخفاضه على هذه الشاكلة لا يقل أهمية ودقة عن الفهم المعاصر للتنغيم.

وقد أدرك السمرقندي وظيفة هذا الارتفاع والانخفاض (التنغيم) في تمييز المعاني، وقدّم مثالاً (أفعلَ) التفضيل، يقول: "فينبغي أن يفرّق بالصوت بين الذي بمعنى التفضيل والذي ليس بمعنى التفضيل" .

وكذلك يجعل التنغيم مميّزاً لـ (لا) النافية في اللام المؤكدة للفعل يقول: "والفرق بينهما أنّه في نحو، لا انفصام) يكتب بألفين، وفي نحو (لاتّبعتم) يكتب بألف واحدة، ويرفع الصوت على، لا) ويخفض على اللام.

فهذا ما وصل إلينا من الأئمة رواية ودراية ومشافهة وبياناً" . وهذا يدلُّ على إدراك السمرقندي الوظيفة النحوية للتنغيم، ويدل جعله التنغيم منقولاً إلى اللاحق من السابق رواية ودراية ومشافهة وبياناً، على إدراكٍ واعٍ لهذا الجانب ولأهميته في الدلالة.

ويذكر الدكتور غانم قدوري الحمد أنّ المرعشي (محمد بن أبي بكر المعروف بساجقلي زاده (١١٥٠هـ) قد استخدم مصطلح

النغمة نقلاً عن النسفي ، وقد دلّ استخدامه له على فهم التنغيم.

إدراك علماء التجويد الجانب الوظيفي للتنغيم:

لاحظنا في الصفحات السابقة إدراك الزركشي الجانب الوظيفي لتنغيم النص القرآني حين ربط بين الترتيل الذي يعطي للنص القرآني حقّه من التنغيم ومعاني ذلك النص. وكذلك رأى ابن الجزري أنّ التلقي الشفوي هو الأساس لضبط معاني القرآن، لذلك ربط بين المد والمعنى، يقول عن السبب المعنوي للمد: "وأمّا السبب المعنوي فهو قصد المبالغة في النفي وهو سبب قوي مقصور عند العرب وإن كان أضعف من السبب اللفظي عند القرّاء ومنه مدّ التعظيم في نحو (لا إله إلا الله، لا إله إلا هو، لا إله إلا أنت) وقد ورد هذا عن أصحاب القصر في المنفصل لهذا المعنى. نصّ على ذلك أبو معشر الطبري وأبو القاسم الهذلي وابن مهران والجاجاني وغيرهم، وقرأتُ به من طريقهم واختاره، ويقال له أيضاً مدّ المبالغة، قال ابن مهران في كتاب المدّات له إنّما سُمي مدّ المبالغة في نفي إلهيّة سوى الله سبحانه قال وهذا معروف عند العرب لأنّها تمدُّ عند الدعاء وعند الاستغاثة وعند المبالغة في نفي شيء ويمدّون ما لا أصل له بهذه العلّة. قال والذي له أصل أولى وأحرى (قلت) يشير إلى كونه اجتمع سببان وهما المبالغة ووجود الهمزة، كما سيأتي، والذي قاله في ذلك جيد ظاهر وقد استحب العلماء المحققون مدّ الصوت بلا إله إلا الله إشعاراً بما ذكرنا وبغيره... وقد ورد مدّ المبالغة للنفي في (لا) التي للتبرئة في نحو (لا ريب فيه، لا مردّ له، لاجرم...) .

إذن، فابن الجزري يجعل المد، وهو زيادة المط في حرف المد على المد الطبيعي([٢٥])، ذا وظيفة في المعنى. هذا من ناحية، وجعل هذا المد الصوتي من العادات المعروفة لدى العرب، وأكدّ استخدام العرب له، ومثّل لذلك بالدّعاء والاستغاثة، وعند المبالغة في النفي...

الوقف والتنغيم:

إنّ موضوع الوقف في القرآن الكريم، من الموضوعات الهامّة والأثيرة لدى علماء الدراسات القرآنية. ومن أقدم الكتب التي وصلت إلينا وأُفرِدت لهذا الموضوع، وسلمت من قبضة الضياع كتاب "إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل" لأبي بكر الأنباري النحوي (٣٢٨هـ) وكتاب "القطع والائتناف" لأبي جعفر النحاس عصريّ أبي بكر الأنباري، يليهما كتاب "المكتفي في الوقف والابتداء" لمصنفه أبي عمرو الداني، وتغلب على هذا الكتاب صبغة جمع مذاهب الأئمة على ما ذكر المصنف نفسه في مقدّمة الكتاب ، ومن كتب المتأخرين الهامة التي جمعت وحللت كثيراً من آراء مَنْ سبقها في موضوع الوقف كتاب ابن الجزري: "النشر في القراءات العشر".

لقد أُفرِد كتاب ابن الأنباري المشار إليه آنفاً لموضوع الوقف في كتاب الله إلاّ أنّه لم يعرض لنا تعريفاً أو تقديماً حول مفهوم الوقف، ولكننا نلاحظ من خلال استعراض الكتاب ربطه بقضايا كثيرة حيث يتحدث مثلاً عن الوقف وعلاقته بالمعنى وبالفهم، يقول:" ومن تمام معرفة إعراب القرآن ومعانيه وغريبه معرفة الوقف والابتداء". ويؤكد هذا المعنى في باب ذكر ما لا يتمُّ الوقف عليه، يقول: "واعلم

أنّه لا يتمُّ الوقف على المضاف دون ما أُضيف إليه، ولا على المنعوت دون النعت...".

وتأتي أهمية الوقف في أداء العبارة القرآنية من كونه "يوضّح كيف وأين يجب أن ينتهي القارئ لآي القرآن الكريم بما يتّفق مع وجوه التفسير واستقامة المعنى وصحة اللغة وما تقتضيه علومها من نحوٍ وصرفٍ ولغة، حتّى يستتم القارئ الغرض كلّه من قراءته، فلا يخرج على وجه مناسب من التفسير والمعنى من جهة، ولا يخالف وجوه اللغة وسبل أدائها التي تعين على أداء ذلك التفسير والمعنى، وبهذا يتحقق الغرض الذي من أجله يُقرأ القرآن ألا وهو الفهم والإدراك، فإذا ما استطاع القارئ أن يفعل ذلك وتمكّن من مراعاته في وقفه عند نهاية العبارة فإنّه لا شكّ سوف يبدأ العبارة على النحو الذي توفّر له في وقفه، فهو لا يبدأ إلا من حيث يتمُّ به المعنى من جهة وبما لا يباين اللّغة وعلومها من جهة أخرى وهو ما حرصت عليه العرب في أداء عبارتها واهتمت له في كلامها شعره ونثره" .

وقد ربط ابن الجزري في كتابه (النشر) بين الوقف والمعنى، يقول: "لمّا لم يمكن القارئ السورة أو القصّة في نفس واحد وجب اختيار وقف للتنفس والاستراحة، وتحتّم أن لا يكون ذلك مما يخلُّ بالمعنى ولا يخلُّ بالفهم إذ بذلك يحصل الإعجاز ويحصل القصد، ولذلك حضّ الأئمة على تعلمه ومعرفته..." ويحدد ابن الجزري طبيعة الوقف بأنه "عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمناً يتنفّس فيه عادة بنيّة استئناف القراءة" .

نلاحظ أنّ ابن الجزري جعل الوقف من أجل الاستراحة للقارئ، وربط هذا الوقف بالمعنى، إذ لا يجوز الوقف على ما يختلّ المعنى به. وربط الوقف الصحيح بالإعجاز. كما رأى ابن الجزري أنّ الوقف ظاهرة أدائية تتعلق بالقراءة وترتبط بالمعنى، وأنّ الإخلال به يؤدي إلى تحريف المعنى عن مواضعه .

إنّ إدراك هؤلاء العلماء لارتباط الوقف بالمعنى يندرج ضمن العلاقة بين التنغيم والجملة، وقد أدرك هذه العلاقة بدقّةٍ ابن الجزري عندما تحدّث عن أنواع الوقف الذي يحدد نمط الجملة ومن ثمّ معناها وتنغيمها، عندما تحدّث عن أنواع الوقف بقوله: "إنّ الوقف ينقسم إلى اختياري واضطراري. لأنّه إما أنْ يتمّ أو لا، فإن تمّ كان اختيارياً، وإنْ لم يتم كان الوقف عليه اضطرارياً" .

ثم يعرض ابن الجزري لأنواع الوقف الاختياري، ويتبع ذلك بتحليل نماذج من القرآن الكريم لأنواع الوقف ، وهو تحليل ينمُّ عن إدراك دقيق لأهميّة الوقف، يقول: "وليس كلّ ما يتعسّفه بعض المعربين أو يتكلّفه بعض القرّاء أو يتأوله بعضُ أهل الأهواء مما يقتضي وقفاً أو ابتداء ينبغي أن يعتمد الوقف عليه، بل ينبغي تحرّي المعنى الأتمّ والوقف الأوجه وذلك نحو الوقف على (وارحمنا أنت) والابتداء (مولانا فانصرنا) على معنى النداء، ونحو (ثم جاؤوك يحلفون) ثم الابتداء، بالله إن أردنا) ونحو (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك) ثم الابتداء، بالله إنّ الشرك..) على معنى القسم...".

نلاحظ إدراك ابن الجزري، بالاعتماد على دلالة تنغيم الجملة، أنّ الوقف يغيّر معنى الجملة أو العبارة، فينقلها من معنى إلى معنى

آخر. مما يجعلها تحمل معنى النداء أو معنى القسم، كما لاحظنا في المقبوس السابق، كذلك نلاحظ أنّ الوقف وتنغيم الجملة هو الذي جعل ابن الجزري يرى أن (مولانا) تحمل معنى النداء، ولا دليل على هذا المعنى غير ذلك؛ ولتوضيح مثال ابن الجزري يمكن أن نحلله على النحو الآتي:

تقول الآية: (ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)/ البقرة: ٢٨٦/.

آ-الوقف الأوّل حسب فهم ابن الجزري وأثر التنغيم:"وارحمنا أنت // مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"الكلام/تحديدي/أي ارحمنا أنت دون غيرك وقف منادى/ بلا أداة/ إذن، إدراك ابن الجزري لهذا النداء الذي تسبّب الوقف به عائدٌ إلى إدراك صوتي تنغيمي، إذ لا دليل على النداء غيره. والخطاب هنا من المؤمن إلى ربّه بواسطة الجملة الإنشائيّة (مولانا).

نلاحظ، هنا أنّ الوقف كان وسيلةً في تحميل الجملة معنى النداء، أما المعنى المغاير فسنلحظه في تحليل الوقف الثاني.

ب-الوقف الثاني حسب فهم ابن الجزري وأثر التنغيم:"وارحمنا// أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"جملة أمريّة معطوفة على جملة سابقة لها.وقف كلام خبري؛ التنغيم هنا خبري أي الجملة لم تعد إنشاء كما لاحظنا في الوقف .

الأوّل.

نلاحظ هنا الاختلاف في المعنى الذي سببّه تغير الوقف، وبالتالي تغيّر تنغيم الجملة وفقاً لذلك، ونلاحظ إدراك ابن الجزري لمعاني الجملة التي تغيّرت بناءً على ذلك.

وبناء على هذا الفهم حلّل ابن الجزري وكذلك ابن الأنباري سابق ابن الجزري عدداً من الأمثلة التي تظهر فهماً لأثر الوقف على معاني الجمل وتنغيمها .

أثر التنغيم في تحديد الوظيفة النحوية :

التنغيم – كغيره من قرائن التعليق – يؤدي وظيفته النحوية في ظل ظاهرة " التضافر " ،و هذه الظاهرة "ترجع في أساسها إلي أنه لا يمكن لظاهرة واحدة أن تدل بمفردها علي معني بعينه[١].

ولقد أجمع النحاة واللغويون علي وجود الوظيفة النحوية للتنغيم ، وجعلوها متمثلة في الوظائف النحوية العامة ، ومن ذلك ما ذكره د/ عبد الرحمن أيوب قائلا :" وجد أن لجملة الاستفهام نظاما خاصا في ترتيب النغمات يختلف عن نظام جملة الشرط أو التقرير أو الإخبار "[٢] .

ولهذا فإن المعني النحوي لابد له من الاعتماد علي الهياكل التنغيمية وهذا ما نص عليه فرث قائلا :" أما النحو فهو ناقص بدون دراسة الأنماط التنغيمية " [٣].

أما د / تمام حسان فقد أشار إلي الوظيفة النحوية للتنغيم في غير موضع ، فيقول مثلا – مشيرا إلي التنغيم – : " ربما كان له وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام ، فقد تقول لمن يكلمك ولا تراه : " أنت محمد "

---

(١) اللغة العربية معناها مبناها / ١٩ .
(٢) أصوات اللغة / ١٥٥ .
(٣) محاضرات في علم اللغة . فيرث / ٩٥ .

مقررا ذلك أو مستفهما عنه . وتختلف طريقة رفع الصوت وخفته في الإثبات عنها في الاستفهام ولكن كل شئ فيما عدا التنغيم يبقي في المثال علي ما هو عليه " [١].

ويشير د/ كمال بشر إلي أثر التنغيم في تصنيف الجمل بحسب معانيها العامة ؛ فيقول : " التنغيم مثلا له دور مهم في تصنيف الجمل والتفريق بينها كما يظهر ذلك بوضوح في التفريق بين الجمل المثبتة والجمل الاستفهامية "[٢] .

وقد ركز النحاة في تمثيلهم علي دلالة التنغيم علي الوظائف العامة للجمل علي المبني المتعدد للمعاني مما يدع مجالا للشك لدي البعض أن لا دور للتنغيم في تحديد الوظيفة النحوية العامة إلا فيما اتحد مبناه واختلفت معانيه ، ولكن الأمر أوسع من هذا ؛ فلكل بناء صيغة تنغيمية دالة علي معناه العام ، وربما يكون تركيز النحاة علي التمثيل بالمباني المتعددة المعاني ، له مبرره عندهم فقد يكون هذا المبرر هو إمكانية ملاحظة التنغيم من خلال المقارنة بين المبني في كل حالة ، وقد يكون المبرر هو أن المبني ذو المعاني المتعددة أوقع في اللبس عما سواه من المباني الثابتة في معانيها مما يجعل اللجوء إلي التنغيم أكثر إلحاحا ؛ لأنه يصبح في هذه الحالة قيمة خلافية بين معنيين لمبني واحد .

ويمكن تحديد دلالة التنغيم علي الوظائف النحوية العامة في الشكل الآتي :

---

(١) مناهج البحث في اللغة / ١٦٤ .

(٢) اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم . د / كمال بشر / ١٦١ ، وينظر : علم الأصوات للمؤلف ذاته / ٥٤١ : ٥٤٣ .

ويمكن تحديد دلالة التنغيم علي الوظائف النحوية العامة في الشكل الآتي :

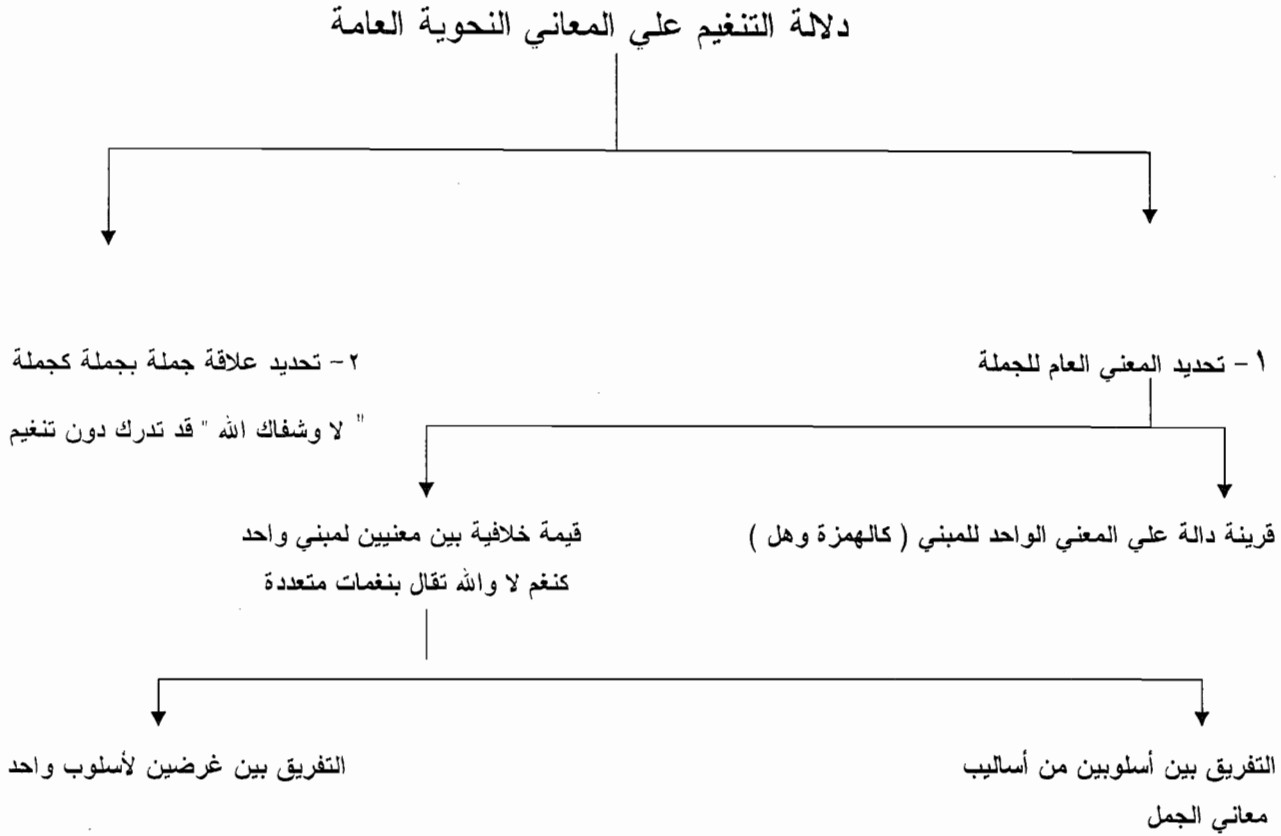

مثال :

قال تعالي " قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا "[١] ؛ فيرى العكبري : أن (ما) استفهامية في وضع نصب (نبغي) ، ويجوز أن تكون نافية ويكون في (نبغي) وجهان : أحدهما بمعني نطلب ، فيكون المفعول محذوفا أي ما نطلب الظلم ، والثاني : أن يكون لازما بمعني ما يتعدى[٢]، وباختلاف (ما) يكون اختلاف الأسلوبين ، وهذا يكون باختلاف نوع النغمة التي تأتي فيها " ما " وهذا يعني اختلاف الهيكل التنغيمي في كل حالة عن الأخرى .

قوله تعالي " قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين "[٣] فجملة (ومن ذريتي) تحتمل الاستفهام والتقرير ، والسياق هو المسؤل عن تحديد أحد المعنيين ، وبمقابلة المعنيين يصبح للتنغيم قيمة خلافية تفرق بينهما .

قوله سبحانه " وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل[٤] "، وهذه - أيضا - تحتمل معني الاستفهام ومعني التقرير ، والتنغيم هو عنصر الخلاف بينهما .

قوله جل وعلا : " يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك "[٥] ، فجملة " تبتغي " بعد حذف همزة الاستفهام أصبحت عرضة للبس وتعدد المعاني الوظيفية ، إذ هي تصلح لأداء معني الاستفهام ، وتصلح لأداء معني الإثبات ، وليس

---

(١) سورة يوسف آية / ٢٩ . .
(٢) ينظر : العكبرى : إملاء ما من به الرحمن ٢ / ٥٥ .
(٣) سورة البقرة آية / ١٢٤ .
(٤) سورة الشعراء آية / ٢٢ .
(٥) سور ة التحريم آية / ١ .

ثمة قيمة خلافية تفرق بين المعنيين سوى الهيكل التنغيمي ، فهو صاعد في الاستفهام ، وهابط في حالة الإثبات .

قوله عز وجل : " ما أغني عني ماليه"[١] ، ويشير إليها العكبري قائلا : " يحتمل النفي والاستفهام "[٢] ،ولا سبيل إلي هذين الاحتمالين إلا باعتبار التنغيم عنصرا خلافيا بين الاحتمالين .

دلالة التنغيم من خلال السياق علي المحذوفات :

العرب لا تحذف إلا بدليل ، وقد ورد حذف الأداة في التراث اعتمادا علي النغمة ومن ذلك :

١- حذف همزة الاستفهام :

كثير من التراكيب جاء يحمل معني الاستفهام بالهمزة في غير وجودها ، وقد أرجع الباحثون هذا الحذف والتقدير إلي الاعتماد علي التنغيم لدلالته علي هذا العنصر المحذوف ، ومما جاء في هذا الصدد ،قول الحق _ سبحانه وتعالى -:" يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك . تبتغي مرضاة أزواجك "[٣] ، يقول د/ كمال بشر مشيرا إلي رأي بعض المفسرين : " قرر هؤلاء بأن جملة تبتغي .. جملة استفهامية ، وتقدير الكلام : أتبتغي ؟ بحذف الهمزة ، والحكم بأنها استفهامية إنما يرجع في حقيقة الأمر إلي تنغيم النطق بصورة توائم الأنماط التنغيمية للجمل الاستفهامية من هذا النوع وليس هناك من داع البتة إلي تقدير محذوف ؛ إذ الكلام مفهوم بدون هذا التقدير ؛ ولأن هذا التقدير عمل افتراضي لا يفيد في هذا الموضوع شيئا علي الإطلاق "[٤] .

---

(١) سورة الحاقة آية / ٢٨ .
(٢) لا إملاء ما من به الرحمن ٢/ ٢٦٨ .
(٣) سورة التحريم أية ١ . .
(٤) علم اللغة العام (الأصوات) د/ كمال بشر / ١٨٩ ، وينظر علم الأصوات / ٦١٣ ، ٦١٢ ، وفن الكلام / ٢١٧ .

ومن أمثلة حذف الهمزة لدلالة التنغيم عليها قوله تعالي : " قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين "[١] يقول د / أحمد مختار عمر : " لابد في هذه الآية أن تقرأ جملة " قالوا جزاؤه " بتنغيم الاستفهام ، وجملة " من وجد في رحله فهو جزاؤه " بتنغيم التقرير "[٢] ، وإذا نطقت الجملة الأولي منهما بتنغيم الاستفهام الصاعد – علي حد قول د / أحمد مختار – فلا بد من تقدير أداة استفهام والغرض من هذا الاستفهام التعجب من قولهم " فما جزاؤه إن كنتم كاذبين " ؛ حيث إن إخوة سيدنا يوسف – عليه السلام – كما دل السياق – لا يتوقعون أن يصل الأمر إلي حد الجزاء لأنهم لم يقترفوا ذنبا ، ولا يسوغ الاستفهام في هذا الموضع إلا بالهمزة ، بل أري أن المحذوف ليس قاصرا علي أداة الاستفهام فحسب ولكن المحذوف يتمثل في الأداة والفعل لتصبح الجملة في حالة ذكر ما حذف منها بالصورة الآتية : " أتقولون جزاؤه ؟ ! " مع ما يلازم الاستفهام من تعجب .

ومن أمثلة حذف الهمزة مع دلالة التنغيم عليها في القرآن الكريم قوله تعالي " قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين "[٣] والتقدير : أو من ذريتي ؟ ، ومن قوله تعالي " وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل "[٤] أي : أو تلك نعمة تمنها علي .. ؟ ، ومنه قوله جل ذكره :" مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة

---

(١) سورة يوسف آية / ٧٤، ٧٥ .
(٢)دراسة الصوت اللغوي / ٣٦٨ .
(٣) سورة البقرة آية / ١٢٤ .
(٤) سورة الشعراء آية / ٢٢ .

للشاربين وأنهار من عسل مصفي ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار ..... "[١] والتقدير : أمثل الجنة ..؟ وفي كل هذه الأمثلة تأتي النغمة صاعدة اللحن دليلا علي الاستفهام .

أما ما جاء من الشعر في هذا الخصوص فأهمه قول الكميت :

طربت وما شوقا إلي البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يطرب ؟

وفيه يقول د / سليمان حمودة : " تقدير العبارة : أو ذو الشيب يطرب ؟ بتقدير همزة استفهام إنكارية محذوفة " [٢].

ومن أمثلة حذف الهمزة أيضا قول عمر بن أبي ربيعة :

أبرزوها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أتراب

ثم قالوا : تحبها ؟ قلت : بهرا عدد النجم الحصى والتراب

أيضا الأمثال العربية اعتمدت علي التنغيم حال وجود همزة استفهام محذوفة ، وفي هذا يقول د/ أحمد أبو اليزيد علي الغريب : " هناك من الأمثلة الكثيرة والتي تكون النغمة فيها دليلا علي الاستفهام دون وجود الأداة "[٣]، وقد مثل – أو قل دلل– بالمثل القائل " تعلمني بضب أنا حرشته ؟ " كما يقول د / كريم زكي حسام الدين : " نجد التنغيم يمكن أن يوجه دلالة بعض الأمثال السائرة من معني التقرير أو الإخبار الذي يدل علي التأنيب أو بمعني الاستفهام الذي يدل علي التعجب كقولهم تضرب في حديد بارد ، تشكو إلي غير مصمت ، تطلب أثرا بعد عين ، إننا يمكن أن نقرأ مثل هذه الأمثال بنغمة

---

(١) سورة محمد آية / ١٥ .
(٢) أسس الإعراب ومشكلاته / ١٣٥ .
(٣) التنغيم في إطار النظام النحوي / ٣٠٣ .

تقريرية أو نغمة استفهامية وكأننا قد قلنا : أتضرب في حديد بارد ؟ ، أتشكو إلي غير مصمت ؟ ، أتطلب أثرا بعد عين ؟ "[١] .

ومضمون كلام د / حسام الدين أن التنغيم هنا في هذه الأمثال هو القرينة الدالة علي الهمزة المحذوفة ، فجميعها ينطق في لحن صاعد دال علي الاستفهام الإنكاري ، ومما يجدر ذكره تعليقا علي رأي د / حسام الدين أن الأمثال ليست قابلة للاحتمال والتعدد الوظيفي ، ذلك لأنها وليدة سياق معين قيلت فيه ، كما أنها لا تقال إلا فيما يناسبها من مقام وإلا أصبح المثال في غير موضعه ولقد اصطنع العرف اللغوي لهذه الأمثال صيغا تنغيمية تقال فيها ، وصحيح أن المثل من هذه الأمثال من الجهة اللغوية يقبل التنوع والتعدد ، ولكن من جهة المبني ، أما من الجهة السياقية أو المقامية فهو لا يقبل غير وجه واحد إذا خرج عنه فسد الاستشهاد به .

وهكذا تبين أن همزة الاستفهام قد تحذف ويدل عليها التنغيم من خلال السياق الذي يحدد المعني العام للجملة .

٢- حذف أداة النداء :

ولقد وردت أمثلة كثيرة في التراث العربي ، ساغ فيها حذف أداة النداء اعتمادا علي النغمة التي تؤدي إلي معني النداء، وفي هذا يقول د/ أحمد كشك : " لقد وردت إلينا نماذج كثيرة تؤكد مجيء المنادى خلوا من أداة النداء تصور لها النحاة أداة نداء محذوفة كانت تقوم بالنداء قبل حذفها ، كأنه لا سبيل إلي تحقق النداء إلا بوجود حرف النداء ظاهرا أو مقدرا "[٢]، ومن الأمثلة التى اعتمدت علي التنغيم بعد حذف أداة النداء :

---

(١) ينظر : كريم زكى حسام الدين : الدلالة الصوتية / ٢١٥ .
(٢) د/ أحمد كشك : من وظائف الصوت اللغوي / ١٠٣ .

قوله تعالي " يوسف أعرض عن هذا "[١] ، وهنا تقدير القول : " يا يوسف أعرض .." فقد اعتمد التركيب علي التنغيم ونية القصد التي ظهرت من خلال صيغة الأمر في " أعرض " .

قوله تعالي : " وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى .."[٢] والتقدير " يا رب أرني .. " . وقد جاء في القرآن الكريم كثير من نداء الحق سبحانه وتعالي علي هيئة الدعاء بلفظ " رب " دون الأداة ، وقد ساغ هذا للاعتماد علي قرينة التنغيم وصيغة الأمر التي تحدد نية القصد ، ومن هذا القبيل قوله سبحانه : " قال رب أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا "[٣] وقوله تعالي : " قال رب فأنظرني إلي يوم يبعثون "[٤]، وقوله جل ذكره : " ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم " [٥].

ومما جاء في هذا الصدد من الشعر نداء الشعراء علي سبيل التصور ، وقد جاء نداؤهما (أي المخاطبين) خلوا من أداة النداء ، ومن هذا قول عمر بن أبي ربيعة :

خليلي عوجا حييا اليوم زينبا ولا تتركاني صاحبي وتذهبا

وقوله :

خليلي ما بال المطايا كأنما نراها علي الأدبار بالقوم تنكص

ومثاله قول جميل بن معمر :

---

(١) سورة يوسف آية/ ٢٩ .
(٢) سورة البقرة آية/ ١٦٠ .
(٣) سورة مريم آية/ ٨ . ٠
(٤) سورة الحجر آية/ ٣٦ .
(٥) سورة غافر آية/ ٨ .

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكي من حب قاتله قلبي

وفي كل هذه الأمثلة جاء المنادي خلوا من الأداة لاعتماده علي التنغيم فالتقدير في الأبيات السابقة " يا خليلي " ، وأيضا : " ولا تتركاني يا صاحبي ... " .

يقول د / أحمد عبد التواب الفيومي : " ومما جاء من هذا القبيل قوله عز وجل " ألا يا اسجدوا لله "[١] فالأداء في هذه الآية يتنوع ، وعلي أساسه يتقرر عما إذا كانت " يا " للتنبيه والنداء معا كما هي في نحو : يا زيد ويا عبد الله ، ويكون المعني أنه أراد " ألا يا هؤلاء اسجدوا لله " فحذف المنادي ، أو كانت لمجرد التنبيه ومجردة من النداء فليس المنادي محذوفا ولا مرادا كأنه قال : " ألا ها اسجدوا " [٢]وهنا لا بد في الحالة الأولي من الحالتين اللتين ذكرهما د / الفيومي من تقدير منادي محذوف يدل عليه التنغيم .

٣- **حذف حرف الواو :**

ومن أمثلة حذف الواو الدالة علي القسم قول جميل بن معمر :

فو الله ثم الله إني لصادق لذكراك في قلبي ألد وأملح

فالتقدير " ثم الله ... " فاعتمد جميل علي النغمة .

أما حذف الواو الاستئنافية فمنها قولهم " لا . شفاك الله " " لا . عافاك الله " " لا . بارك الله فيك " ،ويرى د/ تمام حسان في هذا الصدد أن اللغة العربية " ربما أهملت أن تذكر الأدوات في الجملة اتكالا علي التعليق بالنغمة فكان من الممكن مثلا أن نفهم معني

---

(١) سورة النمل آية/ ٢٥ .

(٢) أبحاث في علم أصوات اللغة العربية / ١٩٧ .

الدعاء من قولهم " لا شفاك الله " بدون الواو اتكالا علي ما في تنغيم الجملة من وقفة واستئناف " [١].

٤- **حذف أداة العرض " ألا " :**

تستعمل " ألا " للعرض وقد تحذف في بعض التراكيب اتكالا علي التعليق بالنغمة ، ومثال حذفها ما ذكره د / تمام حسان قائلا : " قد تغني النغمة عن الأداة كما في قولك عند عرضك الطعام علي مخاطب " تأكل " والمعني المراد (ألا تأكل) [٢]، ومثاله قولنا : " تشرب " بمعني (ألا تشرب) و " تسافر معي " بمعني (ألا تسافر معي) . وفي كل تكون النغمة هي الدالة علي معني العرض لدلالتها علي أداته " ألا" .

هذه بعض أهم مواضع الحذف التي يدل التنغيم فيها علي المحذوف ، وما سبق ذكره من هذه المواضع لا يمثل حصرا لكل حذف دلت عليه الأداة ولكن هو تمثيل علي هذه المواضع . ومن كل ما سبق يتبين أن النغمة تدل علي كثير من الأدوات التي تحذف من التراكيب وتكون دلالتها من خلال الدلالة علي نفس المعني الذي تؤديه الأدوات التي تم حذفها ، ومن خلال دلالة النغمة علي المحذوفات يتم التخلص من اللبس الذي قد يحدث عن هذا الحذف ويتوصل إلي أمن اللبس .

---

(١) د / تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها / ٢٢٧ .
(٢) المرجع السابق / ٢٢٠ .

الخاتمة

لقد هدف البحث – أولا – أن يضع لبنة في البناء الأدائي للغتنا العربية ، هذا البناء الذي يمثل – إلي الآن – نقصا كبيرا مما جعل الاضطراب في نظام نطقها – كما يقول د/ علام – ماثلا في جميع استعمالها ، وفي جميع طبقات المتكلمين بها ، وهذا ما ينعكس أثره علي مفردات اللغة وأصواتها ، و– أيضا – علي وظيفتها ، فيجعلها عاجزة عن تحقيق عملية الاتصال ، بالصورة المقبولة والمرجوة [١].

وإذا كان التنغيم له أهمية في التعبير عن العواطف وانفعالات ، وكونه وسيلة تحت يد المتكلم يجذب بها تنبيه السامعين ، ويوصل بها مراده إليهم فمن هذا المنطق حرصنا علي إبراز هذه الظاهرة الأدائية ، واستطاع البحث أن يصل إلي النتائج التالية :

الكشف عن الواقع الفسيولوجي والفيزيقي للتنغيم ، وعن مدلوله كمصطلح لغوي ، وعن وظيفة التنغيم في مستويات التحليل اللغوي .

- أن التنغيم ركن أساسي في الأداء لا تخلو منه أي لغة من لغات البشر .
- إتقان التنغيم ومعرفته أمر بالغ الأهمية لما له من صلة بالمعني فهناك وظيفتان للتنغيم وظيفة أدائية ووظيفة دلالية .
- وصفت الدراسة الأصول الفسيولوجية والصوتية للتنغيم وكيفية تشكله بداية من الذبذبة الوترية ثم درجات أصوات المقطع الواحد ، ثم تشكل درجات أصوات المقاطع ككل لتكوين الهيكل التنغيمي .
- أنه يمكن القول بأن الأداء القرآني الحسن الذي روعي فيه التنغيم الصوتي ، ينهض لتحقيق غاية مهمة تتمثل في الكشف عن الدلالات المقصودة في النص القرآني ، فالقارئ المجيد يمكنه

---

(١) د / عبد العزيز علام : من التزمين في نطق العربية الفصحي مصر المعاصرة / ١٣٥ ط . دار الصائر ٢٠٠٥ .

- التعبير عن أية فكرة أو معني ، فهو يرفع النغمة ويشتد ويحتد إذا كان المقام يتطلب الشدة والحدة ، ويرق ويلين إذا كان المقام مقام رقة ولين (ونلحظ فى نغمة الشيخ مصطفى إسماعيل – رحمه الله – تصويرا جليا للمعانى) .
- أن دور التنغيم يظهر بوضوح في التفرقة بين الجملة الخبرية والجملة الاستفهامية ، وكذلك الجملة التعجبية ، فالتنغيم عنصر أساسي في تمييز هذه الجمل ، والتفريق بينها ، وأن همزة الاستفهام تسقط استغناء بالتنغيم .

وأن التنغيم له دور في الإفصاح عن خواص الأبواب النحوية كالتحذير والإغراء والنداء والندبة والاستغاثة .... وغيرها .

- أن لعلماء العربية إشارات ذكية تدل علي تنبههم لما للتنغيم من أهمية في تفسير وتوضيح المعاني والإعراب ، فقد عبروا عنه بمصطلحات كالتطويح والتفخيم ، ومط الصوت ومطله ... وكلها لا تخرج عن كونها وسائل تنغيمية تساعد علي فهم المعني في السياق .
- التنغيم ليس محصورا فقط في درجة الصوت وإنما هو مجموعة معقدة من الأداء الصوتي بما يحمل من نبرات ، وفواصل ، وتتابع مطرد للسكنات والحركات التي يتم بها الكلام .
- التنغيم يقتصر علي التراكيب المسموعة أما التراكيب المقروءة فقد استعاضت عنه ببعض رموز وعلامات الترقيم لتدل بها علي الاستفهام والتعجب والاستغاثة والدهشة وغير ذلك .
- أنواع الوقف في القراءات تحتاج إلي دراسة لأن النغمات التي تنشأ عنها متباينة وتؤدي معاني مختلفة .
- إن أساليب الاستفهام والنداء والإغراء والتحذير التي تناولها النحاة بالدرس والتقعيد تحمل في طياتها عند النطق بها تنغيمات مختلفة .

- أن النحاة عند استنباطهم قواعد اللغة العربية اعتمدوا علي السماع ومشافهة الفصحاء من الأعراب ، وعلي ضوء سماعهم وضعوا القواعد ،والعربي عند تحدثه كان يستعمل طرقا معينة في أدائه (تنغيمات) . فالنطق بالإغراء له نمط معين ، وللتحذير أداء محدد ، وكذلك التعجب .

ويقرر البحث : أن علماء العربية – شأنهم في ذلك شأن سائر الناس – خبروا التنغيم ومارسوه في أدائهم الفعلي للكلام . إنهم فعلوا ذلك لا بالتلقين أو التعليم المرسوم القواعد والقوانين ، وإنما كانوا يفعلون مع الأحداث اللغوية الأخري ، من أصوات وصيغ صرفية وتراكيب نحوية إلخ . فلتنغيم عنصر مكمل للمنقوط لا ينفك عنه وأمارة صحته ووفائه المعني المقصود ، وفقا لنوعيات التراكيب ونوعيات مقامات الكلام .

وفى النهاية يقترح البحث الآتى :

١- جمع ما كتب عن التنغيم في دراسة مستقلة ، وتناوله بالدراسة والبحث ، وتصحيح ما أخطأ البعض في فهمه مما لا يتناسب مع المنهج الوصفي في دراسة اللغة .

٢- أن القدماء لا حظوا التنغيم في كلامهم ملاحظة المتكلمين ؛ أي ملاحظة العرف أو المستوي الصوابي ، إلا أنهم لم يدرسوه – كما زعم البعض – وكل ما جاء في تراثهم في هذا الصدد هو بمثابة اشتمام لذا يرجى محاولة التقعيد لهذه الظاهرة الأدائية ، عن طريق بعض العلماء المخلصين كالدكتور تمام حسان وغيره من علماء العربية فى العصر الحديث .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

أهم المراجع

- إبراهيم أنيس(دكتور) ت ١٩٧٦ م : الأصوات اللغوية ، الأنجلو المصرية ١٩٩٧ م .
- أحمد محمد إسماعيل البيلي (دكتور): المكشاف عما بين القراءات العشر من خلاف ، الدار السودانية للكتب ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- أحمد مختار عمر (دكتور) : دراسة الصوت اللغوي ، عالم الكتب ، القاهرة ٢٠٠١ م .
- معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في علم القراءات وأشهر القراء بالاشتراك مع د/عبد العال سالم مكرم ، عالم الكتب ط ٣/ ١٩٩٧ م .
- أحمد كشك (دكتور) : من وظائف الصوت اللغوى ، دارغريب ٢٠٠٦ .
- ابن الأنباري (كمال الدين أبو البركات) ت ٥٧٧ هـ : الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، تح . محمد محي الدين عبد الحميد . ط . المكتبة التجارية الكبري .
- أبو بكر حسيني (دكتور) : النظام التركيبي للحركات العربية " دراسة صوتية في القراءات واللهجات " مكتبة الآداب ط. أولى ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م .
- تمام حسان (دكتور) : اللغة العربية معناها ومبناها ،عالم الكتب .
- مناهج البحث في اللغة ، عالم الكتب .
- ابن الجزري (شمس الدين محمد بن محمد) ت ٨٣٣ هـ : النشر في القراءات العشر ، صححه الشيخ / علي محمد الضباع ، دار الفكر- بيروت .
- الجندي (أحمد علم الدين) : اللهجات العربية في التراث ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣
- ابن جني (ت ٣٩٢هـ) : الخصائص تح .محمد علي النجار ، المكتبة العلمية بيروت .
- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها تح.علي النجدي ناصف. د/ عبد الحليم النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م .

- سر صناعة الإعراب تح . هنداوي، ط . دار القلم دمشق .
- حسنى عبد الجليل يوسف (دكتور) : التمثيل الصوتى للمعانى (دراسة نظرية وتطبيقية فى الشعر الجاهلى) ، الدار الثقافية للنشر – القاهرة ط . أولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨-
- أبو حيان (محمد بن يوسف الأندلسي) ت ٧٥٤هـ : البحر المحيط في التفسير ، ط دار الفكر بيروت ، ١٩٩٢ م .
- ابن خالويه(أبو عبد الله الحسين) ت ٣٧٠ هـ : إعراب القراءات السبع وعللها ، تح . عبد الحمن بن سليمان العثيمين ، مكتبة الخانجي القاهرة ط ١ ، ١٩٩٢ م .
- الحجة في القراءات السبع تح . عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ط ٤ /١٩٨١ م.
- الداني (أبو عمرو) ت ٤٤٤هـ : التيسير في القراءات السبع ، عني بتصحيحه أوتو برتزل.دار الكتب العلمية بيروت ط ١/ ١٩٩٦م
- الدمياطي (شهاب الدين أحمد بن محمد) ت ١١١٧ هـ: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر .ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢ م .
- أبو زرعة (عبد الرحمن بن محمد من علماء القرن الرابع) : حجة القراءات ، تح . سعيد الأفغاني ، ط٤ . مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) ت ٥٢٨ هـ : أساس البلاغة ، دار صادر بيروت ١٩٩٢ م .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .
- المفصل في صنعة الإعراب تح إميل يعقوب ط . دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٩ م .
- ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهيل) ت ٣١٦ هـ الأصول في النحو ، تح عبد المحسن الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط٣ / ١٩٩٦ م .

- سعيد عبد المنعم عليوه: الأصوات عند أبي حيان الأندلسي ت ٧٤٥ هـ رسالة دكتوراه . مودعة في كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٥هـ /١٩٩٥م
- سلمان حسن العانى (دكتور) : التشكيل الصوتى فى اللغة العربية فونولوجيا العربية ' ترجمة : د/ ياسر الملاح ، مراجعة د/ محمد محمود غالى ، النادى الأدبى الثقافى بجدة ، ط . أولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .
- سيبويه (ت ١٨٠هـ) : الكتاب ، تح. عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي .ودار الرفاعي بالرياض ط.الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١هـ : الأشباه والنظائر في النحو ، تح . عبد لعال سالم مكرم ط . مؤسسة الرسالة ط أولي / ١٩٨٥م . الإتقان في علوم القرآن ، ط . الهيئة العامة للمطابع الأميرية ١٩٨٣ م .
- الصفاقسي (أبو الحسن علي بن محمد النوري) ت ١١١٨ هـ : غيث النفع في القراءات السبع ، دار الفكر – بيروت ١٩٩٥ م .
- عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ، مكتبة الشباب - القاهرة .
- عبد الله ربيع محمود : (بالاشتراك) علم الصوتيات ، القاهرة (د . ت)
- عبد العزيز علام (دكتور) : من التزمين فى نطق العربية الفصحى بمصر المعاصرة ، ط . دار البصائر- القاهرة ، الأولى ٢٠٠٧.
- عبد الصبور شاهين (دكتور) : القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي ط. الثالثة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م .
- عبد الفتاح القاضي (خادم القرآن) : الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع ط .الأزهر الشريف ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م .
- عبد المنعم محمد النجار (دكتور) : الصوت اللغوي عند القدامي والمحدثين . الطبعة الأولي ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م .
- عبده الراجحي (دكتور) : اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ م .

- غالب المطلبي (دكتور) : في الأصوات اللغوية (دراسة في أصوات المد العربية) منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق ، دار الحرية للطباعة ١٩٨٤ .
- محمد صالح الضالع(دكتور) : علم الصوتيات عند ابن سينا ، دارغريب ، ط . ٢٠٠٢.
- محمد علي الضباع (الشيخ) : الإضاءة في بيان أصول القراءة . دار التراث بطنطا ط ٢ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .
- مصطفى حركات (دكتور) : الصوتيات والفونولوجيا ، الدار الثقافية للنشر .
- الموافي الرفاعي البيلي (دكتور) : الحركات في ضوء علم اللغة الحديث ، ط أولي . ١٤١٢ هـ /١٩٩٢م .
- النعيمي (حسام سعيد) " دكتور " : الدراسات اللهجية الصوتية عند ابن جني دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة العراقية ١٩٨٠ م .
- هاني الفرنواني (دكتور) : ظاهرة الاجتزاء في العربية ، دار الوفاء ٢٠٠٤م .
- وفاء البيه (دكتور) : أطلس أصوات اللغة العربية ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٩.
- ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي) ت ٦٤٣ هـ : شرح المفصل .

المراجع الأجنبية :

The Poneties and Phonology Of An Aden .